مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن

الدكتور
عبد الجواد خلف

دار البيان للطباعة والنشر
٢٠٠٣م

الدكتور
عبد الجواد خلف

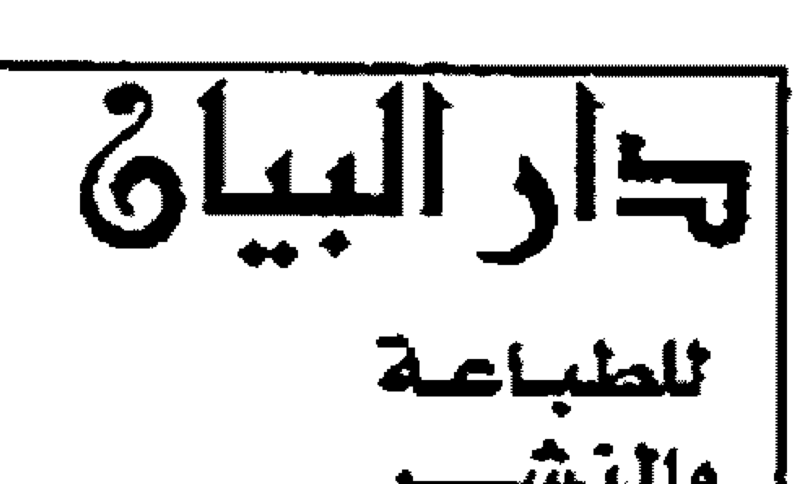
مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن

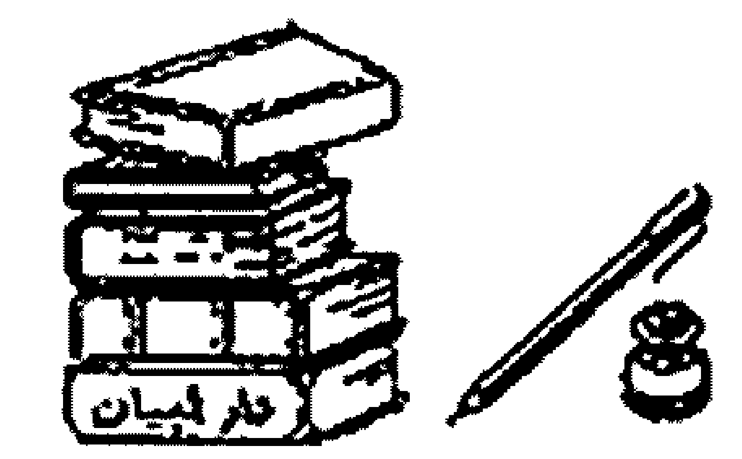
دار البيان
القاهرة

مدخل إلى
التفسير وعلوم القرآن

دار البيان

للطباعة
والنشر
والتوزيع





٧ عمارات الجبل الأخضر
بجوار نادي السكة الحديد
ووزارة المالية الجديدة
مدينة نصر
تليفاكس: ٤٨٢٢٤٨٧
ت- ٤٨٣٤٣٢٧

رقم الإيداع
١١٢٠٥ / ١٩٩٩م

الترقيم الدولي
961-700-33-8

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى أصحابه ومن والاه.

وبعد : فإن أكثر ما قامت عليه الحضارات البشرية كلها مَردّه إلى التعاليم الإلهية التي جاءت بها النبوات الكبرى منذ العصور الأولى للإنسان.

وقد ختمت هذه النبوات ، وتبلورت مفاهيمها، ووضحت صورتها تمام الوضوح ببعثة محمد ﷺ بالإسلام .

وقد كان لبعثته ﷺ فاتحة عهد جديد لظهور أمة جديدة ختمت بها الأمم، أرست قواعدها وأركانها الأساسية، وأقامت جذورها، على « الوحي الإلهي» الذي تبلور في علوم القرآن ، وعلوم السّنة.

وهذا الكتاب محاولة « لترتيب المفاهيم الفكرية للإنسان» حول جذور الحضارة الإسلامية خاصة فيما يتعلق بالمنبع الأصلي لهذه الجذور، وهو «الوحي الإلهي»، الذي لم تكن الحضارة الإسلامية بدعًا من الأمم في الاعتماد عليه، وإنما تفردت عن سائر الأمم المعتمدة على هذا المنبع في تنظيمه، وتنسيقه، وإعداده ليكون منهج حياة يستوعب سائر الأمم مكانا وزماناً .

و« الوحي الإلهي» في مفهوم الحضارة الإسلامية هو القرآن والسنة معًا، لا ينفكان ولا ينفصلان عن «مفهوم الوحي» . وإنما ينفكان وينفصلان في ضوابط الحكم على جزئيات المسائل الفرعية بين ماهو قطعي في دلالته على الحكم، أو ما هو ظنيٌ فيها، وهذا ما توصف به السنة كما يوصف به القرآن، وذلك عند من يفهم أن منبع هذه الجذور واحدٌ .

أما من لا يستقيم له هذا الفهم فينكر السّنة أو شيئاً منها، فليس له من فهم الحضارة الإسلامية نصيب كبير، وعلّته في سقم فهمه ، ولا يَفُتُّ في عضد جذر

من جذور هذه الحضارة قليلا أو كثيراً.

وهذا الكتاب أيضا ، وإن ألقى ضوءاً سريعًا على السنّة النبوية المشرفة، ومنزلتها، وعلومها الجليلة إلا أنه معنيٌ بالدرجة الأولى فى الأخذ بيد القارئ إلى التعرف على علوم القرآن الكريم، وأولها « علم علوم القرآن» وهو علم التفسير.

فلا غرابة إذاً أن يكون عنوان هذا الكتاب : « مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن» ليعرف القارئ الكريم أن أول ما نشأ من علوم القرآن فى أحضان النبوة، وتحت رعايتها هو «علم التفسير» الذي احتاج فيما بعد إلى ابتكار سائر علوم القرآن ليَشُدَّ من أزره على خدمة القرآن ، والكشف عن مراد الله تعالى، وبيان تشريعه، وأحكامه، وآدابه.

وكذلك ليرتب كل مُنْتَمٍ إلى حضارة الإسلام ذهنه وفكره، على أن القرآن والسنة بعلومهما، وفنونهما هما منابع تلك الحضارة ، وأن البعد عن هذه المنابع بعد عن الأمة الإسلامية والإنسلاخ عنها إلى حضارات أخرى ليست محل عنايتها.

وقد جاء هذا المدخل فى قسمين رئيسين :

تناولت فى القسم الأول : الكلام حول مجموعة من المباحث اهتمت بالحديث عن جذور الحضارة الإسلامية .

وتناولت فى القسم الثانى : مجموعة من الأبواب المختارة فى علم التفسير، وبعض علوم القرآن المتعلقة به .

وتركت تفصيل ذكر مباحث القسمين إلى الفهرس العام .

والله أسأل أن ينفع به من صلحت نيته للإستفاده منه، وأن يأجرنا جميعا بصوالح نوايانا إنه نعم المجيب.

د/ عبد الجواد خلف

كراتشي فى : ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م

القاهرة فى : ١٤١٠ هـ - ١٩٩٦ م

القسم الأول

جذور الحضارة الإسلامية



القسم الأول

جذور الحضارة الإسلامية

المبحث الأول: تمهيد

كل أمة من أمم الأرض تَخْضَع في « حضارتها » بمفهومها الشامل، من ثقافة، وتربية ،وتعليم، وزراعة ، وصناعة ، وعادات ، وتقاليد، وعمران، إلى « دينها» الذي تدين به .

فأمة الهند مثلا تبْنى كل حياتها على الديانة « الهندوكية» وتوابعها من البوذية، والجينية وتستمد كل ثقافاتها من هذه العقائد الدينية بما فيها أشكال الأبنية والعمارات ،والزواج ، والطلاق ، وسائر شئون الحياة حتى التعامل مع جثث الموتى.

وكذلك أمة اليهود والنصارى يستمدان حضارتهما من ديانتهما.

و الأمة التي لا تدين بدين، ولا تؤمن بإله ، أمة- أيضا - تستمد حضارتها من الدين . ودين مثل هذه الأمة: «أنه لا دين لها».

ومنذ أدرك الإنسان نفسه على سطح هذا الكوكب الذي نعيش فيه، وهو يبحث بفطرته وغريزته عن سرِّ وجوده في هذا الكون، بل وعن الكون المحيط به:

من أوجده ؟ وما غاية هذا الوجود؟ .

ولم يزل الإنسان في هذا البحث منذ عهد سحيق يريد أن يحدد مركزه ومركز الكون المحيط به وهو يرى السماء والأرض، والسهول والجبال ، ويرى الرعد القاصف والبرق الخاطف والعواصف الشديدة ، ويرى الأعاصير التي تقتلع الأشجار ، والأمطار الغزيرة التي تجعله يبحث عن مأوى يحميه منها .

ثم يرى الليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر ، وتأثير كل واحد منها على حياته، وحياة الكائنات الحية فيما حوله من حيوانات ، وطيور.

ثم يتأمل الحياة فيمن يولد من حوله .. ويتفكر في الموت في من يذهب عنه ليدفن في باطن الأرض .. ما السِّر وراء كل ذلك ؟!

و هاهي الآثار الأدبية للإنسان المصري القديم تحدثنا عن هذه التأملات الفكرية المتقدمة في تلك المنظومة الرائعة للوزير « حُتب» الكاهن المصري الفرعوني ، والتي سجلها في « كتاب الموتى » حيث يقول :

« إن الموتى الذين ذهبوا لم يَعُد واحد منهم من « الأَبَدِيَّة» ليحدثنا بما جرى لهم حتى يُسعِد قلوبنا .. فَدَعْ عقلك ينسى هذا ، واتبع رغبات قلبك ما دمت حيًّا، وتَمتَّع بأطايب الحياة قبل أن يأتي « يوم الآخرة» .. فالمرء لا يأخذ متاعه ، والذاهب لا يعود ».

ولا أحسب أن ذلك الإنسان القديم .. قدم التاريخ .. وهو يقدم لنا هذا الفكر المتواضع كان يدرك - وهو يفعل هذا - أنه إنما يُنَمِّي غريزة كامنة في نفسه، **ألا وهي غريزة التدين !**

فكما أن علماء الاجتماع توصلوا إلى أن الإنسان **« مدني بطبعه»** فإن علماء الأديان يحق لهم أن يقولوا أيضا : **«إن الإنسان متدين بطبعه »**..!

وغريزة التدين شأنها شأن سائر الغرائز التي أودعها الله في الإنسان كغريزة الجوع، وغريزة العطش، وغريزة التَّمدُّن، وغريزة حبِّ التملك ، وغيرها من الغرائز التي تطالب الإنسان أن يسعى إلى إشباعها ، وسدّ مطالبها واحتياجاتها.

فغريزة الجوع : تدفعه إلى العمل ، والسعي في الأرض للحصول على الرزق الذي يهيئ له الطعام ليسد به غائلة جوعه ، ويشبع به هذه الغريزة.

وغريزة العطش : تدفعه إلى البحث عن الماء ، وتنمية موارده وتخزينه، واستعماله عند الضرورة والحاجة.

وغريزة التَّمدُّن : جعلته يشعر بالحاجة إلى أخيه من بني الإنسان ، وأنه لا

يمكن أن يعيش بمفرده منعزلاً عن الآخرين .

وغريزة حب التملك : دفعته إلى اقتناء الحاجات الضرورية ، وحفظها ، والدفاع عنها ضد من يحاول أن ينتزعها من يده.

وكذلك « التدين » غريزة دفعته إلى أن ينظر إلى نفسه ، من أين أتى..؟ وإلى أين يذهب ..؟

وأن ينظر إلى الكون من حوله..ما مصيره ؟ وما مصير العالم كله من بعده؟

وسرعان ما اكتشف بعقله المجرد .. أن هذا الوجود كله لا بد وأن يكون وراءه مُوجِدٌ، وأن هذا الكون كله لا بد له من صانع، وقد تبين له أن الصانع المُوجِدَ قوةٌ جبارةٌ تَقْهَرُ ولا تُقْهَرُ ، تُجِيرُ ولا يُجَارُ عليها.

عرفها أيضا بعقله، وفطرته ، وغريزته .. واستصرخها، وطلب نجدتها عندما أَلَمَّتْ به أمواج البحار توشك أن تُغرقه ،أو عندما عصفت به الرياح تُوشك أن تُهلكَه .. فأغاثَتْهُ ونَجدَتْهُ.

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْه ﴾ (١).

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْه ﴾ (٢).

وانتشر الإنسان على الأرض لِيُكَوِّن الجماعات ، وانتشرت الجماعات لِتُكَوِّنَ الشعوب ، والقبائل ، والأمم ، وعُرِفَت كل أمة بحضارتها ، ولونها وجنسها، ودينها.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾. (٣)

ومع انتشار الأمم وتفرق القبائل ، تفرّقت الأديان ، وتشعبت المِلَل والنِّحل

---

(١) الزمر: ٨ . (٢) الروم : ٣٣ . (٣) الحجرات : ١٣ .

واعتصمت كُلُّ أمة بإله تناجيه ، وتلوذ به .

عُرِفَ أن العرب قبل الإسلام كانوا يعبدون الأصنام ..فصنعوها من الحجر، والخشب ثم ما لبثوا أنْ صنعوها من العجوة، وكانوا يحملونها فى أسفارهم حتى إذا جاعوا جلسوا إلى شجرة فأكلوا منها ثم سجدوا لها شاكرين .

وقد ذكروا أن أعرابيا مسافرا أكل من عجوة صنمه شيئاً ، ثم قام يقضى حاجته بعيداً، فجاء ثعلب من الثعالب يطوف حول متاع الأعرابى والصنم قائم عند المتاع ، فأخذ الثعلب يشم رائحة الصنم يستسيغ أكله فلم يُسِغْه، لأن الثعالب من فصيلة الكلاب .. تأكل ما يأكله الكلب، وتبول كما يبول الكلاب، فما كان من الثعلب - وقد استقذر - رائحة الصنم إلا أن رفع رجله وبال على رأسه والأعرابى يرقبه فى حذر ودهشة . فلما انتهى الثعلب من فعلته ، وأفاق الأعرابى من دهشته، قام إلى متاعه فحمله ، وإلى صنمه فداسه، ثم أنشد على فطرته السليمة هاتفا:

أرَبٌّ يبول الثُّعْلُبان برأسه ؟ ∴ لقد ذل من بالَت عليه الثَّعالبُ [1]

ومثله ذلك الأعرابى على فطرته السليمة .. وغريزته البصيرة، وقد نظر فى ما حوله من صحراء مترامية الأطراف ، ترتمى فى أحضان أرض بعيدة المدار .. تعلوها سماء تتعانق معهما عند مَدّ البصر، ذات نجوم وأبراج ،فما لبث يفكر فى عظمة هذا الخَلْق ، ويردّه بفطرته إلى يد الخالق فيقول:

« سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فِجاج.

البَعَرَةُ تدل على البعير ، والقدم يدل على المسير .

أفلا يدل هذا على الحكيم الخبير »...؟

(١) تاج العروس ٢/ ٩٠.

وأما أصحاب الفطر السقيمة ، والعقول القاصرة، فلم يبلغوا هذا المبلغ فتخبطوا في دياناتهم خبط عشواء متحلقين حول صنم لا ينفع ولا يضر، أو متجهين إلى كوكب مصيره الأفول، أو إلى نار يوقدها بنفسه لتنطفئ وتخلف رماداً لا طائل من ورائه لعابد ولا ناسك .

أو حائرين حول فلسفات عقلية، أو مناظرات ومجادلات عقيمة لا تؤدى إلى نتيجة قاطعة.

فكان من رحمة الله الخالق المدبر أن أرسل رسله مبشرين ، هادين ومرشدين ولم يترك عباده لعقولهم وأهوائهم تلعب بهم:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (١).

* فبعث فى كل أمة رسولا منهم ليعرفوه :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾(٢).

* يتكلم بلسانهم ، ويخاطبهم بلغتهم ليفهموا عنه ، ويبين لهم ، ليَعُوا ما يقول:

﴿ ومَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلا بِلِسَانِ قَوْمِه لِيُبَيِّنَ لهم﴾ (٣).

* يعلمهم أنهم مخلوقون لله جل شأنه ، خلقهم ليعرفوه فيعبدوه ، وهم محتاجون له وهو غنى عنهم :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ ﴾ (٤).

ومنذ ذلك الوقت البعيد : تنَزَّلَ الوحى ، على رُسُلٍ مختارة بعناية الله لهداية الأمم والأقوام ، والتقت السماء بالأرض ، والملائكة بالأنبياء تحمل معها كتب

---

(١) النساء: ١٥ .
(٢) النحل : ٣٦ .
(٣) ابراهيم : ٤ .
(٤) الذاريات : ٥٦- ٥٨

الله وصحفه ، لتتلوها رُسُلُه على خلقه.

فسارع إلى الإيمان بها من كُتب له النجاة.

وسارع إلى نكرانها من كُتبت له الشقاوة والحرمان .

وتنازعت أممَ الأرض أديانٌ مختلفة ، وعقائدُ متباينة، نجملها فى اثنين لا ثالث لهما.

أديان إلهية سماوية ، وأديان فلسفية عقلية .

والأديان الإلهيـــة : أساسها الوحى ، ووسائل بيانها وتبليغها الأنبياء والرسل.

والأديان الوضعية: أساسها العقل البشرى، ووسائل تبليغها مفكروها وفلاسفتها.

وجميع الأديان سواء كانت إلهية ، أو عقلية متفقة كلها على التمييز بين الخير والشر فكلها يدرك أن الصدق ،والوفاء ، والأمانة، وإطعام الجائع، وإكساء العارى، وعلاج المرضى ، ونصرة المظلوم ، والنكاح الصحيح من مكارم الأخلاق ومحاسنها . وكلها يدرك أن الكذب والخيانة ، والسرقة ، والفظاظة والغلظة ، والقتل ، والزنا، وشرب الخمر من مساوئ الأخلاق التى لا يرضاها العاقل من الناس .

والفارق بين الديانات الإلهية والعقلية: أن الديانات العقلية الفلسفية ترد الأعمال إلى ضرورة الاجتماع البشرى الذى يرى العقلُ المجرد ضرورةَ تنظيمه فى إقرار المعروف وإنكار المنكر فى صورة قوانين، ولوائح، ونظم ، يُجَرِّمُها ويعاقب عليها سلطة زمنية مؤقتة سواء كان حاكما ، أو إلها مزيفا لا يملك مع الله الخالق الحقيقى شيئاً.

وأما الديانات الإلهية ، فإنهـا ترد الأعمـال كلها إلى الخـالق الحقيـقى للكون والإنسان، وترد التـجريم، والعـقاب، والجزاء إلـيه ، وتعتـبر أن هذه الحـياة التى يحياها البشر حياة مؤقتة ، معدة للأعمال ، وما يسرى فيها من جزاء إنما هو جزاء مؤقت ، وأن الجزاء الأوفى فى حياة أبدية دائمـة ، تقام بعد فناء هذا العالم الذى سيزول يوما ما .

وهذا الفكر الذى جـاءت به الديانات الإلهيـة تَبَلْوَرَ بصفـة نهائـية فى مُسَـمَّى الإسـلام ، واكـتملت كل أسـسـه وقواعده على يد الـنبىّ محمـد ﷺ، وعلى سائر إخوانه من الأنبياء.

إذا: فما هو هذا « الإسلام » ؟

والجواب :الإسلام هو دين الله عز وجل .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّه الإِسْلاَمِ ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَة مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢).

وقال تعالى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾(٣).

وهو دعوة جميع الرسل ، والأنبياء .

أى أن جميع الرسل والأنبياء أُمروا من الله تعالى بتبليغ « الإسلام » إلى أممهم من أولهم:«نوح» عليه السلام ، إلى آخرهم :« محمد » ﷺ ، وعلى إخوانه من الأنبياء.

قال عز وجل : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى، وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ

---

(١) آل عمران : ١٩ .   (٢) آل عمران : ٨٥ .   (٣) المائدة: ٣ .

عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (١)

وقال النبي ﷺ: «الأنبياء إخوةٌ لِعَلاّت، أُمَّهاتُهم شَتَّى ودينُهم واحد» (٢).

وما أرسل الله رسولاً من هؤلاء الرسل، ولا أتبعه بنبيٍّ من بعده إلا بلَّغ قومه بالإسلام، وحثهم عليه في نفسه، وأمرهم في أنفسهم أن يُسْلموا، بل وربما كان من شدة خوف الأنبياء من الله تعالى، وخوفهم على أبنائهم وأممهم أنه كان إذا حضر الواحدَ منهم الموتُ جمع أبناءه حوله، وأخذ يطمئن منهم على تمسكهم من بعده بدعوة الإسلام.

والمتتبع لدعوة الأنبياء جميعا من خلال نصوص القرآن الكريم يراهم حريصين جدَّ الحرص الذي لا حرص بعده ولا قبله على تمسكهم بمسمى الإسلام وغايته، لا مسمى غيره، ولا غاية سواه، واحداً بعد واحد.

وسنمضي مع مسيرتهم المباركة بحسب ترتيبهم الزمني كما يأتي:

(١) نوح: عليه السلام:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ. فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣).

(٢) إبراهيم: عليه السلام:

١- ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ

---

(١) الشورى: ١٣.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٢٧٠ الحديث رقم (٣٢٥٩) - كتاب الأنبياء.

(٣) يونس: ٧١.

فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾(١).

٢ - ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾(٢).

(٣) إبراهيم وإسماعيل : عليهما السلام :

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ (٣).

(٤) يعقوب (إسرائيل) وبنوه : عليهم السلام :

١ - ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله ءابائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾ (٤).

٢ - ﴿ قولوا ءامنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (٥).

(٥) يوسف : عليه السلام :

يطلب يوسف من ربه - بعد أن من عليه بالنبوة والملك أن يحسن ختامه «بالإسلام» .

﴿ رب قد ءاتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾.(٦)

(١) البقرة : ١٣٠-١٣١ (٢) البقرة : ١٣٢. (٣) البقرة : ١٢٧-١٢٨ (٤) البقرة : ١٣٣
(٥) البقرة : ١٣٦ (٦) يوسف : ١٠١ .

(٦) سليمان: عليه السلام:

١- في خطاب سليمان الذي أرسله إلى « بلقيس» ملكة اليمن يدعوها إلى «الإسلام» .

﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ. أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾.(١)

٢- طلب سليمان من معاونيه من الجنّ، ومن عنده علم من الكتاب إحضار عرش « بلقيس» من اليمن إليه في الشام قبل أن تجئ إليه « مسلمة»:

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.(٢)

٣ - إقرار بلقيس « بالإسلام» الذي يعتقده ويدين به سليمان عليه السلام:

﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .(٣)

(٧) موسى: عليه السلام، والنبيون حملة التوراة:

١- يقول موسى لقومه وهو يشد من أزرهم وعزمهم ويثبّتهم على الإيمان إن كانوا قد أسلموا حقيقة .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾(٤)

٢- إقرار سحرة فرعون بالإيمان بالله، وصبرهم على تعذيب فرعون، ودعائهم إلى الله بالصبر والثبات ، وعدم إماتتهم إلا على « الإسلام ».

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾(٥).

٣ - إقرار فرعون « بالإسلام» الذي عليه موسى، وبنو إسرائيل في آخر لحظة من عمره :

---

(١) لنمل : ٣٠، ٣١ . (٢) النمل : ٣٨ . (٣) النمل : ٤٤ . (٤) يونس : ٨٤ (٥) الأعراف : ١٢٦

﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾.(١)

٤ – إثبات أن « التوراة» يحكم بها النبيون ، والربانيون، والأحبار– الذين أسلموا على يد موسى عليه السلام– شعب اليهود.

﴿ إِنا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾.(٢)

(٨) عيسى؛ عليه السلام ،وأتباعه ،الحواريون؛

١ – يقر أصحاب عيسى عليه السلام – وهم الحواريون الذين آمنوا به – أنهم على دين « الإسلام» .

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُواْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾(٣)

٢ – إثباتُ القرآن اعترافَ أهل الكتاب – من اليهود والنصارى – وغيرهم بالإيمان بالله تعالى ، وبالقرآن الذى سينزل على نبيّ آخر الزمان محمد ﷺ :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُواْ آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ إِنَّكَ لا تَهْدِي

---

(١) يونس : ٩٠ .　　(٢) المائدة : ٤٤ .　　(٣) المائدة : ١١١ .

مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾.(١)

٣- كما نجد أن الله تعالى ينفى تماماً عن أبى الأنبياء وجدِّهم إبراهيمَ عليه السلام أىَّ مُسَمًّى آخر غير مسمى « الإسلام» وأىَّ دين آخر غير دين « الإسلام».

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلا نَصْرَانِياً وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢).

(٩) محمد ﷺ وختم الوحى والنبوات:

ثم بعث الله محمداً ﷺ برسالة الإسلام التى كَلَّفَ بها إخوانه من الرسل السابقين ، وأمَرَه ربُّه بتبليغ الإسلام لقومه :

١ - ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾(٣).

٢ - ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.(٤)

* ثم شاءت إرادة الله تعالى أن يجعل مُحَمَّداً ﷺ آخر الأنبياء والمرسلين وأن يختم به الوَحْى والنبوات إلى قيام الساعة.

١ - يقول الله تعالى :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (٥).

٢ - ويقول الرسول مُحمد ﷺ :

أ - « أنَا محمد النبىُّ الأمىُّ ، وَلاَ نبىَّ بَعْدى »(٦).

---

(١) القصص : ٥٢-٥٧ . (٢) آل عمران : ٦٧ . (٣) الأنعام : ١٤ .

(٤) الأنعام : ٧١ . (٥) الأحزاب: ٤٠.

(٦) صحيح البخارى - كتاب الأنبياء ، مسند أحمد ٢/ ١٧٢.

ب - « يَا عَلِىُّ : أَنتَ مِنى بمنزلة هارون من موسى إلا أنَّه لا نَبِىَّ بَعْدِى»[1]

جـ - « يا محمد : أنت رسولُ الله وخاتَمَ الأنبياء» [2].

* كما شاءت إرادته سبحانه أن يجعل رسالة محمد ﷺ رسالة كافة للعالمين ، عامةً للناس أجمعين إلى قيام الساعة :

١ - ﴿ ومَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً للعَالَمِينَ ﴾ [3].

٢ - ﴿ ومَا أَرْسَلْنَاكَ إلا كَافَّةً للنَّاسِ ﴾ [4].

* وبهذا شُبِّهَ « الإسلام» كأنه قصر عظيم بُدِئَ في بنائه منذ عهد أول نبى، حتى كَمُلَ بناؤه، واستقر صَرْحُه، وثبتت دعائمه ، وحَسُنَت صورته ببعث محمد صلى الله عليهم جميعا وسلم.

وهذا تماماً ما صوره رسول الله ﷺ حيث يقول:

« مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها ، وترك فيها موضع لَبِنة لم يضعها فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه، ويقولون لو تم موضِع هذه اللبنة ؟

« فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة ».[5]

* وبعد تمام نعمة « الإسلام» واكتمال الدين :

١- نفى الحرج عن كل أتباع الإسلام الذين ينتسبون إليه منذ عهد إبراهيم عليه السلام:

﴿ وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ

---

(١) سنن الترمذى باب المناقب ، مسند أحمد ١/ ١٧٧ . (٢) صحيح مسلم ١/ ١٨٥ كتاب الإيمان .
(٣) الأنبياء : ١٠٧ . (٤) سبأ : ٢٨ .
(٥) مسند الإمام أحمد ٥/ ١٣٧، وانظر الأحاديث التساعية ص ٣.

شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَاةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَى وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ (١).

٢- ونَهَى عن التعرض بالأذى أو الاعتداء لأهل الكتاب من اليهود والنصارى المندرجين بالعهد فى أمة الإسلام والذين أعرضوا عن مسمى الإسلام إلى مسمى اليهودية، والنصرانية.والإكتفاء بدعوتهم «إلى العودة» إلى مسمى « الإسلام» بالحسنى والرفق فإن أجابوا فلأنفسهم ، وإن أعرضوا فعليها ، و« أما نحن » . فله «مسلمون» .

أ- ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إلا بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ إلا الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُم وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَـهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.(٢)

ب - ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لله وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ بَصِيرُ بِالْعِبَادِ﴾ (٣).

* أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ «بالاعلان» لجميع البشر أن «الإسلام» هو الدين القيِّم، وهو الصراط المستقيم :

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ومَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(٤)

نتيجة هذا المبحث : حقق هذا المبحث النتائج التالية :

١ - « الدِّينُ» غريزة من الغرائز التى فطرها الله وأودعها فى الإنسان عند خَلْقه كسائر الغرائز .

٢- غريزة « التَّدَيُّن» الكامنة فى فطرة الإنسان تحتاج إلى درجة من الإشباع

(١ الحج : ٧٨ . (٢) العنكبوت : ٤٦. (٣) آل عمران : ٢٠ . (٤) الأنعام : ١٦١.

سداً لحاجة هذه الغريزة عند الشعور بها، تماما كحاجته إلى الطعام لسد غائلة الجوع عند الشعور به غريزيا .

٣ - إهمال معالجة إشباع غريزة التدين يؤدى إلى الانحراف عن الله تعالى ، وعن دينه الصحيح.

٤ - للإشباع السليم لغريزة التدين عند الإنسان أرسل الله الرسل والأنبياء للناس أيا كان زمانهم أو مكانهم لإرشادهم إلى أن الحقيقة الكبرى ، والوحيدة ، والباقية التى لا تفنى إنما هى : وجود الله عزوجل .

٥ - أن جميع الرسل والأنبياء دعاةٌ لدين واحد ، له مسمى واحد : هو «الإسلام» ، وأنّ له غاية واحدة هى : معرفة الله الذى لا شريك له، ولا خالق سواه.

٦ - اكتملت رسالة الإسلام تماماً، وأغلقت النبوات ، وختمت الشرائع ببعث محمد ﷺ.

المبحث الثانى : الوحى الإلهى

مطلب فى : الله ...والفطرة...والأنبياء...والوحى...

(١) استدلّ إنسانٌ ما قبْلَ النُّبوّات فى مواقع مختلفة من هذا الكوكب بفطرته، وغريزته إلى أن هناك قوة عظمى وخفية هى المؤثرة فى هذا العالم وجوداً، ونظاماً، ونشاطاً. وكان هذا استجابة لمطلب غريزى يدفعه إلى سوق بعض التساؤلات عن خَلْقه وخالقه، والكون المحيط به ، وأنظمته، والحياة ، والموت، وما وراءهما.

كما كانت استجابة لمطلب عقلى فطرى يدفعه إلى ضرورة الإجابة عن ما قد يتوفر له معرفته رداً على هذه التّساؤلات الغريزية.

(٢) ولما كان العقل البشرى الفطرى يختلف من إنسان لآخر فى حدّ القدرة والذكاء، كما يختلف فى حدٍّ الضعف والغباء، وأن الناس يتفاوتون فى المعرفة نتيجة تفاوتهم فى الاستنتاج والاستنباط من مقدمات الكون وأدلته، لذلك لم يترك الله عزوجل - وهو الحقيقة الكبرى والوحيدة - هذا المخلوق نهباً لعقله الفطرى الذى قد يصيب عند البعض ، ويخطئ عند الغالبية العظمى، لذلك «ألهم» من بينهم عقلاء... شرفاء ... أمناء ...أرسلهم إلى أممهم ليدلوهم على الطريق السوى ... ويهدوهم إلى السبيل القويم ... ويتلوا عليهم كتبا فيها تنظيمٌ لسلوكياتهم، وترشيدٌ لمفاهيمهم وأعمالهم، وتعريفهم بمنازلهم عند الخطأ أو حال الصواب.

١ - ﴿ أَفَحَسِبْتُم أنّما خَلَقْناكُمْ عَبثًا وَأَنَّكُمْ إلَيْنا لا تُرْجَعُونَ ﴾[1].

٢ - ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[2].

* إذا فالله تعالى هو حقيقة الوجود بلا مراء ، ولا جدال، وكل ما عداه باطل .. زائف .. زائل .

وهذا المعنى هتفت به فطرة الإنسان العربى قبل أن يُبعث النبىُّ محمد ﷺ .

قال لَبيد :

ألا كل شئ ما خلاَ اللّه باطلُ وكل نعيم لا محالة زائل[3]

* وقد دلَّت الفطرة السليمة ، والنظر السديد فى آيات الكون المنظور .. فى السماء .. فى الأرض ..فى الجبال.. فى البحار .. فى المطر.. فى الرعد .. فى كل شئ على إثبات حقيقة وجود الله تعالى .. وحقيقة أنه الخالق ..

---

(١) المؤمنون : ١١٥.

(٢) الإسراء : ١٥.

(٣) جامع البيان ١٣/ ١٤٨.

القادر .. القاهر فوق عباده :

وفى كل شئ له آية تدل على أنه الواحد

إلى حدّ أنه من البساطة بمكان إحباط حُجة « الملحد» الذى ينكر وجود الله أصلا عندما يُبادرك بسؤاله التقليدى الساذج : ما الدليل على أنّ اللّه موجود؟ فيكون إحباط ما يَظُنّ ويدّعى أنه سؤال مُفْحِم بمجرد عكس السؤال وردّه عليه كالآتى : وما الدليل على أن الله غير موجود ؟

عندئذ ينكشف الستار عن سهولة الإجابة عن السؤال الأول حيث تتوفر هذه الإجابة فى ملايين الملايين من الأدلة القاطعة التى لا مجال لإنكارها.

كما ينكشف الستار لا عن صعوبة الإجابة على السؤال الثانى فحسب.. بل عن استحالة وجود جواب صحيح قاطع يصلح أن يقيم لمعارض حجة.

* ولما ثبت وجود الله تعالى بالنظر في آيات الكون المنظور، والفطرة الغريزية ، والدلائل العقلية، والمقدمات المنطقية السليمة المؤدية إلى نتائج صحيحة ثبتت له جل شأنه القدرة على كل شئ :

١ - ﴿ فَلَمَّا تَبَينَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

٢ - ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. (٢)

٣ - ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣).

* وتبعا لهذا الإيمان اليقينى الراسخ ، نؤمن بأن اللّه تعالى خَلَقَ مَا يَشاءُ من الخلق كالملائكة من حيث شاء ، وكالجن من حيث شاء، وكالطير من حيث شاء، وكسائر الخلق من حيث شاء، فهو ربُّ الخلائق، والعوالم، وله الحمد على كلّ ما خلق:

---

(١) البقرة : ٢٥٩ . (٢) النور : ٤٥. (٣) فاطر : ١ .

١ - ﴿ الحَمْدُ للَّه رَبِّ العالمين ﴾ (١).

٢ - ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٢).

* وقدَّر لكل مخلوق عَمَله، ووظيفته، وقدّر له مقدرته على أداء هذه الأعمال، فشأن الملائكة مثلا : القدرة على الهبوط إلى الأرض، والصعود إلى السماء، والتشكل بما يشاءون من الأشكال الحسنة، والأجنحة المتعددة التى تساعدهم على أداء وظائفهم.

﴿ الحَمْدُ للَّه فَاطِرِ السَّمَوات والأَرْضِ جَاعِلِ الملائِكَةِ رُسُلاً أُولِى أَجْنَحةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِى الخَلْقِ مَا يَشَاء ﴾ (٣).

* فلا غرابة إذًا أن تنزل الملائكة على أشخاص مميزين ليكونوا رُسُلَ اللَّهِ إلى الناس فى أممهم..

ولا يستنكر العقل، ولا العاطفة، ولا الشعور، ولا الغريزة : تلك الظاهرة التى سرناها فى صلة السماء بالأرض، ألا وهى ظاهرة : **الوَحـى**.

فلا ينكر أهل «التوراة» أن «الوحى» نزل على موسى عليه السلام بها، و «بالألواح» التى كُتب له فيها من كل شئ موعظة، وبكل شئ تفصيلٌ.

ولا ينكر أهل «الإنجيل» أن «الوحى» نَزلَ على عيسى عليه السلام «بالإنجيل»، فيه هدى ونور، ليحكمَ به أهلُه بما أنزل الله فيه .

فظاهرة «الوحى» عند أصحاب النبوات جميعاً ظاهرة معروفة غير مُنْكَرة، فهى إذًا ثابتة بالتواتر منذ عهد آدم، والكلام عنه من باب تعليم المتعلم ما ينبغى أن يُعْلم، وليس من باب إثبات شئ يحتاج إلى إثبات؛ وما كتبه بعض الباحثين عن «إمكانية وقوع الوحى» ومحاولة إثباته، لا يعدو أن يكون ترفقاً ببعض من يركبهم الغرور الناتج عن خلل فطروا عليه فى تفكيرهم.

---

(١) الفاتحة : ١.　(٢) الأنعام : ١٦٤.　(٣) فاطر : ١ .

نتيجة هذا المبحث :

١- أن « لله » تعالى هو الخالق للوجود كله بلا مراء ولا جدال .

٢- ثبوت الوحي المنزل على الرّسل بالتواتر عن جميع الأديان السماوية.

مطلب في : التعريف بالوحي :

قال الله عز وجل : ﴿ إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحى ﴾ [١]. ﴿ قُلْ إنَّمَا أنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إلَيَّ أنَّمَا إلَهُكُمْ إلهٌ وَاحِدٌ ﴾ [٢]. ﴿ قُلْ إنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالوَحْيِ ﴾ [٣].

فما هو الوحي إذاً ؟ ما معناه ؟ وما أنواعه ؟:

(١) الوحي في لغة العرب : مصدر مأخوذ من الفعل: وَحَى ، و..أوْحَى وهو لفظ من ألفاظ الاشتراك اللغوى التي تطلق على معان منها : الإلهام ، والإشارة، والرسالة ، والأمر، والإيماء ويجمعها كلها معنى واحد هو:« إعلام الغَيْر في خفاء»[٤]. وقد ورد لفظ « الوحي » في القرآن الكريم بهذه المعاني اللغوية الشائعة على النحو التالي :

١ - على سبيل الإلهام الغريزي الذي يعطى للكائن البسيط كالحشرات ، والحيوانات لكي تؤدي وظائفها المنوطة بها.

ونجد هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إلَى النَّحلِ أن اتَّخذي مِنَ الْجبَال بيُوتاً وَمِنَ الشَجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ، ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكَ ذُلُلا ﴾ [٥].

٢ - على سبيل الإلهام الفطري للإنسان ، حيث يتلقى الإنسان معلومة فطرية سريعة لم تكن في سابق تفكيره.

---

(١) النجم : ٤. (٢) فصلت : ٦. (٣) الأنبياء : ٤٥ . (٤) تهذيب اللغة : ٥/٢٩٦.(٥) النحل : ٦٨ , ٦٩.

ونجد هذا المعنى متمثلا في تصرف « أم موسى» الذي يحدثنا به القرآن الكريم: ﴿ وَأَوْحَينا إلى أم موسَى أنْ أرْضعيه فإذا خفْت علَيْه فألْقيه في اليمّ ولا تَخَافي ولا تَحْزَني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ (١).

٣ - على سبيل الوسوسة، وهو ما يحدث من تفكير الشياطين الذي تحدث عنه القرآن الكريم بقوله :

﴿ وَإنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إلَى أوليَائهمْ ليُجَادلُوكُمْ ﴾ (٢).

فهذه المعانى الثلاثة للوحى تناولها القرآن الكريم من حيث الدلالة اللغوية العامة لمعنى كلمة « الوحى » وليس من حيث الدلالة الاصطلاحية الفنية، التى تدل على الوحى بالمعنى الشرعى .

الوَحْىُ : شرعاً :

يجب أن يُعْرف أن أي معنى اصطلاحى ، أو شرعى لا بد وأن يكون مأخوذاً من المعنى اللغوى أو من أحد المعانى اللغوية إن كان للكلمة أكثر من معنى .

ولا يكون المعنى الاصطلاحى أو الشرعى معتبراً إذا أهمل المعنى اللغوى للكلمة، ومن هنا فإن :

الوَحْيَ هو : تكليم الله سبحانه وتعالى لمن اختاره من عباده بإحدى طرق الوحى .(٣)

أو هو : كلام الله المنزل على الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم.(٤)

وقد عرفه الإمام محمد عبده بقوله :

« عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من الله تعالى بواسطة أو

---

(١) القصص : ٧. (٢) الأنعام : ١٢١. (٣) مورد الظمآن إلى علوم القرآن: ص ١٠.

(٤) أنوار البيان فى علوم القرآن ص ٣٤ .

بغير واسطة »[1].

ومن هذه التعاريف يفهم أن للوحي الشرعي قيوداً، وضوابط يخصصه عن الإطلاق اللغوي العام، وأهم هذه الضوابط هي :

أ - له مصدر أساسي، أوْحَدٌ : وهو الله تعالى (المُوحِي) .

ب - له مُسْتَقبِلٌ مُختار بعناية الله :لا يملك التنصل عن مهمة الاستقبال والتبليغ: وهو الرسول المختار (الموحى إليه).

جـ- له نصٌّ خاص يراد إبلاغه وبيانه للناس (موحى به).

د - له كيفية خاصة تربط المصدر بالمستَقْبِل وهذه الكيفية هي الواسطة بين المصدر، والمستقبل (وهي صور الوَحْيْ).

مطلب: في صور الوحي

للوحي صور متعددة يأتي فيها وهي :

(١) النَّفْث في رَوْع النبي ، أو إلقاء الإلهام في قلبه على صورة غير مشكوك فيها أنها من عند الله .

وهذه الصورة تتم بطريقتين:

الأولى : بالإلهام.

ودليلها: قوله ﷺ : « إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها ،ألا فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب»[2].

والثانية : بالرؤيا في المنام .

ودليلها :

١ - قوله تعالى في شأن إبراهيم وولده إسماعيل :

---

(١) الوحي المحمدي للشيخ محمد رشيد رضا : ص ٤٤.

(٢) شرح السنة للبغوي ١٤/ ٣٠٤ (٤١١٢) .

﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ [1].

٢ – ما أخرجه البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت :

« أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحى : الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » [2].

(٢) تكليم الله تعالى لنبيِّه من وراء حجاب.

وصورتها : أن يسمع الموحي إليه الصوت ، ولا يُبصر المتكلم نتنزه البارى جل جلاله عنه.

ودليل هذه الصورة :قوله تعالى في شأن « موسى » عليه السلام :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى. إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي ءَاتِيكُم مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى . فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى. إِنِّي أَنَاْ رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً ،. وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى. إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ [3].

(٣) مَلَكٌ يخصص بالوحي :

فيأتي إلى النبى ﷺ على واحد من الصور الآتية :

الأولى : صوت كصوت الجرس، أو كدوى النحل ، أو كخفق أجنحة الملك يتقدم بإلقاء القول الثقيل على قلبه، ويكون تقدمه من أجل أن يفرغ سمعه للوحى فلا يبقى فيه مكانا لغيره .

ودليله : قول عبد الله بن عمر رضى الله عنهما:

« سألت النبى ﷺ : هل تُحِس بالوحى ؟، فقال : أسمع صلاصل، ثم

---

(١) الصافات : ١٠٢.   (٢) صحيح البخارى بشرح السندى ١/ ٦ .

(٣) طه : ٩- ١٤.

أسكت، وعند ذلك : فما من مرة يوحى إليَّ إلا ظننت أن نفسى تقبض [1].

وهذه أشد حالات الوحى قوة، كما ورد فى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت :

« سأل الحارث بن هشام رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشَدُّه علىَّ فَيُفْصَمُ عنى، وقد وعيت عنه » [2].

الثانية : يأتيه مَلَك الوحى على صورته الحقيقية التى خلقه الله تعالى عليها بأجنحته الوفيرة ودليله :

١ - حديث عائشة رضى الله عنها فى رؤيته ﷺ لجبريل .

قال ﷺ : « رأيته مُنْهَبِطاً من السماء سادّاً عِظَمُ خَلْقِه ما بين السماء إلى الأرض» [3].

٢ - حديث زِرٍّ بن حبيش عن عبد الله بن مسعود، قال :

« لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، قال : رأى جبريلَ فى صورته له ستُّمائة جَنَاحٍ» [4].

الثالثة : يأتيه ملك الوحى على صورة « رجل » مجهول حسن الصورة لا يعرفه أحدٌ ودليله :

حديث عمر رضى الله عنه ؛ قال :

بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع َعلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ. شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ . لا يُرَى عَلَيْهِ أثرُ السَّفَر . وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ . حَتَّى

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/ ٢٢٢.

(٢) صحيح البخارى بحاشية السندى ١/ ٦ .

(٣) صحيح مسلم ١/ ١٥٩ (٢٨٧)

(٤) صحيح البخارى ، تفسير سورة النجم ٣/ ١٩٣ .

جَلَسَ إلى النَّبيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْه إلى ركبتيه ، وَوَضَعَ كَفَّيْه عَلَى فخذَيْه .وقَالَ : يا مُحَمَّدُ ! أَخْبِرْنى عَنِ الإِسْلام . فقَال رَسُولُ اللـه ﷺ « الإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إله إلا اللهُ وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله . وتُقِيمَ الصَّلاةَ. وتُؤْتِى الزَّكَاةَ. وتصُومَ رَمَضَانَ. وتَحُجَّ الْبَيْتَ، إن اسْتَطَعْتَ إلَيْه سَبِيلاً » قَالَ : صدَقْتَ . قالَ فَعَجِبْنَا لَهُ . يَسْأَلُهُ ويُصَدِّقُهُ. قال : فَأَخْبِرْنى عَنِ الإيمان، قالَ « أَنْ تُؤْمِنَ بالله، ومَلائكته ، وكُتُبِه، ورُسُله، والْيوْمِ الآخر. وتُؤْمِنَ بالْقَدَر خَيْره وشَرِّه» قَالَ : صَدَقْتَ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنى عَنِ الإِحْسَان ، قالَ « أَنْ تعْبُدَ اللّهَ كَأَنَّكَ تَراهُ . فإنْ لَمْ تَكُنْ تراه، فَإِنَّهُ يرَاكَ» . قالَ : فَأَخْبِرْنى عَنِ السَّاعَة. قالَ « ما الْمَسْئُولُ عَنْها بأَعْلَمَ منَ السَّائل» قَالَ : فَأَخْبِرْنى عَنْ أَمَارَتِها. قالَ: «أَنْ تَلدَ الأَمَةُ رَبَّتَها. وأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ العُرَاةَ ، الْعَالَةَ، رعاء الشاة، يتَطَاولُونَ فى الْبُنْيَان » . قال : ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ، ثم قال لى « يَا عُمَرُ ! أَتَدْرى مَن السَّائل؟» قُلْتُ : اللّهَ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ، قالَ « فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ. أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دينَكُمْ».

الرابعة : يأتيه مَلَكُ الْوَحى ، على صورة رجل معين من العرب كان حسن الصورة والهيئة اسمه «دحية الكلبى ». أما الرسول ﷺ ، فيعرف أنه جبريل عليه السلام ، ويذكر ذلك لأصحابه بعد أن ينصرف جبريل عليه السلام.[1].

ودليله قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلا وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُون ﴾ .[2].

وجميع صور الوحى مجملة كلها فى قوله تعالى :

﴿ وما كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلا وَحْياً أَوْ منْ وَرَاءِ حِجَاب أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإذْنِه مَا يَشَاءُ إنَّهُ عَلَيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [3].

---

(١) تفسير البغوى ٢/ ٨٦   (٢) الأنعام : ٩ .   (٣) الشورى : ٥١.

ويُلاحظ من التدبر والنظر فى ظاهرة الوحى أنّ لها الخصائص التالية :

الأولى : أنها قوة خارجية، ليست ذاتية فى نفس النبى الذى يوحى إليه.

الثانية : أنها قوة خَيِّرَة معصومة، مهمتها الإرشاد إلى الخير، ومعصومة من الخلل والزلل فى توجيه الأوامر والنواهى، والسلوكيات العامة والخاصة.

الثالثة : أنها قوة عالمة ، تمد النبىَّ بعلم مكنون لم يكن له به معرفة سابقة.

الرابعة: أنها حالة اختيارية .

الخامسة :أنها أمر عارض غير عادى [1].

ولما كُنَّا قد استخلصنا من تعريف الوحى بالمعنى الشرعى الخاص، والمقيد بالإطلاق اللغوى بمفهومه العام قيوداً ، وضوابط هى :

(١) المُوحِى : وهو الله تعالى شأنه.

(٢) المُوحىَ بـه : وهو الكلام المنزل .

(٣) المرْسَلُ بالوحى : وهو المَلك.

(٤) المُستقْبِل للوحى : وهو الرسول المختار .

لذلك فإن كلمة « الوَحْى» قد تطلق على أغلب هذه الضوابط .

فقد يسمى المَلكُ المرسل ، وَحْيًا .

وقد يسمى الكلام المُوحَى به- القرآن، والحديث النبوى ، والحديث القدسى- وَحْيًا .

* ويلاحظ - كذلك - أن الوحى كان ينزل بأوامر الله تعالى ، ونواهيه ، كما ينزل بالأخبار وقصص الأولين، كما ينزل فاصلاً لمنازعات وقتية، ومشاحنات عارضة.

---

(١) مورد الظمآن فى علوم القرآن ص ١٧.

وهي في كل هذه الأمور لا بُدَّ أن يُوقف الوَحْيُ الرَّسُولَ المُوحَى إليه على القول المُوحى به من حيث إثباته في السطور وتدوينه وحفظه في الصدور ، أم لا . ويوقفه على ما ينبغي معرفته إنْ كان آيةَ يجب إثباتها على أنها من كلام الله تعالى أم أنها خبر للفصل في قضية أو منازعة.

كما نلاحظ -أيضا- الفرق بين الوَحْي الذّي هو شخص الملك، والوَحْي الذى هو إلهام، والوحى الذى هو رؤيا فى المنام.

فما كان متعلقا بكلام الله تعالى لفظاً ومعنى ، ونصّاً فإن الوحيَ «المَلَك» ينزل به شخصيا ، ويوقف عليه رسول الله ﷺ على أنه كلام الله تعالى نصاً، كما يُعْلمه موقع الآية ، أو الآيات من السورة الواحدة.

وما ليس من كلام الله تعالى نصًا ، ولكنه من كلامه معنى، فإن الوحى فى هذه الصورة يمكن أن يكون بطريق الإلهام، أو الرؤيا ، كما يمكن أن يكون بطريق الملك نفسه غير أن الملك يخبر الرسول على أنه ليس من كلام الله نصا.

مطلب في: أنواع الوحي وخصائصه:

ولذلك يمكن لنا أن نقسم « الوحى» تقسيما «اجتهاديا» وذلك على ضوء الملاحظات المتكررة فى مبحث « الوحى» إلى حالتين اثنتين « نختصهما بالوحى المنزل على نبينا محمد ﷺ » وهما :

(١) **وحْيٌ جَلِيٌّ** :وهو القرآن الكريم ، كلام الله عزوجل (لفظا ومعنى). ويقال فيه: وحى مسطور ، أو وحى مسجل فى اللوح المحفوظ ، خص « جبريل» من بين الملائكة (غالبا) بإنزاله على رسوله محمد ﷺ مفرقا على مدار سنوات الدعوة التى بلغت ثلاثا وعشرين سنة.

كما نزل بالكتب على سائر الأنبياء من قبله صلوات الله عليهم جميعا.

(٢) وحي خفيّ : وهو السنة النبوية المشرفة، التى هى (كلام الله عزوجل معنى) ،وأقوال النبى ﷺ لفظا، وأفعاله عملا .

وهو بمثابة البيان ، والتفصيل للقرآن ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (١).

ويدخل فى هذا النوع الحديث القدسى.

ولما كانت صفة الوحي على هذا الاعتبار والتقسيم الاجتهادي فإننا نلاحظ خصائص عامة مشتركة بين الوحي بنوعيه خفيا أم جلياً، كما نلاحظ خصائص منفردة لكل منهما.

١- الخصائص المشتركة بين الوحي الخفي والوحي الجلي :

* أن كليهما من الله عزوجل.

* أن كليهما منزل على محمد ﷺ خاصة.

* أن كليهما قابل للتشريع (أى الأمر، والنهى ، والإباحة والتحريم).

٢ - خصائص الوحي الجلي وصوره :

* أن جميعه متواتر قطعي الثبوت ، محصور ومحفوظ بين دفتي المصحف.

* أن نزوله بواسطة « الروح الأمين جبريل » الملك المخصص برسائل رب العالمين إلى الرسل والأنبياء ، فلا يثبت بالإلهام ، ولا بالرؤيا فى المنام .

قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ (٢).

٣ - خصائص الوحي الخفي وصوره :

* ليس كله متواتراً، وليس كله قطعي الثبوت لكثرته ، وتعدد روايته ،

---

(١) النحل : ٤٤.   (٢) الشعراء : ١٩٣.

واختلاف رواته، وليس كله محصورا فى مكان واحد من كتاب واحد.

* يثبت الوحى الخفى بالإلهام ، وبالرؤيا فى المنام، وبجبريل عليه السلام فهو أعم من الوحى.

وهو بهذا الإثبات نوعان : توقيفى ، وتوفيقى.

* غير مقصود بذاته فى الصلاة فلا تجوز الصلاة به.

* معناه من الله تعالى ولفظه من النبى ص .

* غيرمعجز، ولا متحد به البلغاء، وإنما هو من جوامع الكلم.

* يصح أداؤه بالمعنى لمن قدر على فهمه ونسى خاصة لفظه، أوشك فيما حفظه منه.

* هو أعم من أن يكون إلهاماً، أو رؤيا منامية، أو بواسطة جبريل عليه السلام.

* الحديث القدسى يشتمل على الحكم، والمواعظ ، وليس فيه تشريع، ولا أحكام . وعلى ألفاظه سمة خاصة تعطيه معنى القدس، أى : الطهر.

مطلب فى: كتابة الوحى، وتدوينه، وأشهر كتابه

١ - الوحى الجلى:

لما كان الوحى الجلى هو القرآن الكريم وهو كلام الله عزوجل المنزل على نبيه محمد ﷺ ، المتعبد بتلاوته فى الصلاة.

لذلك حظى من الرعاية والعناية الغاية القصوى سواء ، كان ذلك بالحفظ فى الصدور، أو بالكتابة فى السطور.

فلم يلحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى ، إلا وقد جمع القرآن الكريم ودون فى الصحف ، إلى جانب حفظ رسول الله ﷺ له فى صدره حفظا تاماً كاملاً يراجعه جبريل ويسمعه منه فى شهر رمضان، كما حفظه عدد وفير من

الصحابة رضوان الله عليهم.

وكان أشهر كتاب الوحي بين يدى النبى ﷺ :

* عثمان بن عفان	(ت : ٣٥ هـ)
* على بن أبى طالب .	(ت : ٤٠ هـ)
* أبى بن كعب .	(ت : ٢٠ هـ)
* زيد بن ثابت.	(ت : ٤٥ هـ)
* أبو بكر بن أبى قحافة.	(ت : ١٣ هـ)
* عمر بن الخطاب .	(ت : ٢٣ هـ)
* عامر بن فهيرة.	(ت : ٣ هـ)
* عبد الله بن الأرقم .	(ت : ٣٣ هـ تقريبا)
* ثابت بن قيس بن شماس.	(ت : ١٢ هـ)
* خالد بن سعيد بن العاص.	(ت : ١٢ هـ)
* أبان بن سعيد بن العاص.	(ت : ٣٥ هـ)
* حنظلة بن أبى عامر الأسدى .	(ت : ١٠ هـ)
* معاوية بن أبى سفيان .	(ت : ٦٠ هـ)
* شرحبيل بن حسنة .	(ت : ١٨ هـ)
* عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول .	(ت : ١٢ هـ)
* الزبير بن العوام .	(ت : ٣٦ هـ)
* معيقب بن أبى فاطمة الدوسى.	(ت : ٣٤ هـ تقريبا)
* المغيرة بن شعبة.	(ت : ٥٠ هـ)

* خالد بن الوليد . (ت : ٢١ هـ)

* العلاء بن الحضرمى . (ت : ٢١ هـ)

* عمرو بن العاص . (ت : ٤٣ هـ)

* جهيم بن الصلت. (ت : .... هـ)

* عبد الله بن رواحة. (ت : ٨ هـ)

* محمد بن مسلمة. (ت : ٤٦ هـ)

* عبد الله بن سعيد بن أبى سرح . (ت : ٣٦ هـ)

رضى الله عنهم أجمعين .

وقد بلغ عدد كتاب الوحي نيفا وأربعين كاتبا، غير أن أكثرهم مداومة وملازمة لكتابة الوحي هو : زيد بن ثابت رضى الله عنه، أما أكثر الصحابة حفظا وجمعا للقرآن الكريم فهم :

* عثمان بن عفان . (ت: ٣٥هـ)

* علي بن أبى طالب. (ت: ٤٠هـ)

* أبى بن كعب . (ت: ٢٠هـ)

* عبد الله بن مسعود . (ت: ٣٢هـ)

* زيد بن ثابت . (ت: ٤٥هـ)

* أبو الدرداء : عويمر بن صخر. (ت: ٣٢هـ)

* أبو هريرة : عبد الرحمن بن صخر. (ت: ٥٧هـ)

* عبد الله بن عباس . (ت: ٦٨هـ)

* عبد الله بن السائب. (ت: ٧٠هـ)

نتيجة هذا المبحث :

(١) عن «الوحي» بنوعيه الجلي ، والخفي ، وصوره التي نزل بها مصدرها واحد. وعن الوحي جاء ماعُرِف علميا باسم «السنة»، وما عرف علميا باسم «القرآن» .

(٢) أن الجيل الأول الذي شاهد الوحي وهو يتزل «بالعلم» هم الذين قاموا على تسجيله وضبطه، وحفظة ، سواء في الصدور ، أو في السطور تحت رعاية النبي ﷺ وتوجيهه ، وإرشاده .

المبحث الثالث : السنة النبوية المشرفة (الوحي الخفي)

أما الوحي الخفي (أعني السنة المشرفة) فقد تأخر تدوينها بصفة رسمية نظرا لوجود بعض الأحاديث الناهية عن كتابتها وتدوينها ، مما جعل كثيرا من حفاظ السنة ونقلتها يحجمون عن كتابتها تورعا، وخوفا من وقوعهم في ما نهى رسول الله ﷺ عنه. بقوله :« لا تكتبوا عني شيئاً ، ومن كتب عنّي غير القرآن فليمحه».

وقد اتخذ بعض المغرضين من تأخر تدوين السنة ذريعة للتشكيك في صحتها جملة وتفصيلا، أو التشكيك في معظمها.

غير أن الباحث المنصف إذا أمعن النظر في الحكمة من نهي الرسول ﷺ عن التدوين لوجد أن الباعث على النهي أحفظ للسنة من الباعث على الإجازة بكتابتها.

ولو كتبت السنة في وقت متزامن مع القرآن لكان مجال الطعن فيها وفي القرآن معا أكثر من مجال الطعن في تأخر تدوينها.

وغالب ما يؤدي إليه نظري أن النبي الأكرم صلوات الله وسلامه عليه كان أكثر تشوفا للمستقبل عندما نهى عن التدوين المبكر للسنة مما أدى فيما بعد إلى ابتكار علوم الدفاع عنها، وإثراء الفكر الإسلامي بها، وتفتق الملكات العقلية

بمصنفاتها وبحوثها، في الوقت الذي تجنب فيه كتاب الوحي مظنة الخلط بين تدوين القرآن الكريم وتدوين السنة المشرفة، فقد أمن اللبس والخلط بينهما تماما بسبب ظهور هذا النهي الرسمي المبكر.

حتى إذا كان مطلع القرن الثاني الهجري حفزت مجموعة من الأسباب والبواعث همّة عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين إلى إصدار أمره إلى ابن شهاب الزهري بجمع السنة وتدوينها.

وكان هذا أول أمر رسمي بتدوين وكتابة السنة.

غير أن المنيَّة لم تمهل هذا الخليفة العظيم حتى يرى ثمرة أمنيته وقد تحققت، بل لم يقدَّر للسنة النبوية أن تجمع كلها من صدور الرجال في كتاب واحد.

ولكن لم ينته القرن الثالث الهجري حتى دونت أهم كتب المسانيد والصحاح وهما مسند الإمام أحمد بن حنبل، وصحيح أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، وحتى وقت جمع هذين السفرين الجليلين من صدور الرواة إلى سطور الصحف كانت السنة غالبا تحفظ في الصدور ،ويتلقاها الخلف عن السلف شفاها في حرص شديد ، ودقة تامة.

وكان هذا هو الحال الغالب والأعم بالنسبة للسنة النبوية، وإن كان قد وجد بعض الصحف المكتوبة سواء في عهد النبي ﷺ أم في عهد الصحابة رضي الله عنهم، غير أن هذه الصحف لم تكن من الغلبة والكثرة بالقدر الذي يمكننا من إصدار حكم قاطع بأن السنة قد دونت وجمعت كلها كما دون القرآن وجمع.

ولما كان حظ السنة في القرون الثلاثة الأولى الغالب عليها«الرواية»، فقد حرص النقاد من حفاظ الحديث حرصا شديدا على تتبع رواة السنة ونقلتها ، وتمييز مروياتهم من مرويات غيرهم من الضعفاء والمتهمين بقلة الأمانة في نقل مأثور الكلام عن المعصوم ﷺ ، لما في« الرواية » شفاها من مظنة الخطأ وضعف

الحفظ ، والتدليس ، بل والوضع والكذب في بعض الأحيان،خاصة وأنه لا يوجد كتاب ضابط ، ولا سفرٌ يدوِّن على الراوى مقولته، ويسجل عليه روايته ، فنشأت لذلك علوم الجرح والتعديل، وتاريخ الرواة لدفع الكذب والكذابين عن صاحب الوحي ، سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه.

فلا يوجد في هذه الأعصر الثلاثة الأولى راو إلا وقد غَرْبَلَهُ النقاد غربلة تامة، وتتبعوه في كل شأن من شئون حياته، ووضعوه تحت قيود فنية على غاية من الدقة في التعديل إن كان عدلا، أو في التجريح إن كان مجروحا.

أما ما خلا القرون الثلاثة الأولى ، فقد شمَّر الحفاظ عن سواعد الجدّ لتدوين السنة المشرفة في الكتب والأسفار التي ما لبثت أن أخذت من جهود الحفاظ أثمن وأغلى ما في أعمارهم ، واجتهدوا في ترتيبها، وتبويبها ، وتصنيفها حتى استقر غالب السنة في أسفار عظيمة سمي كل سفر منها بحسب اجتهاد جامعه، وتبويبه، وترتيبه على النحو التالي :

١ - **المُسْنَد** : وهو كتاب يرتبه راوى أحاديثه على أسماء الصحابة بحيث يجمع أحاديث كل صحابى في مكان واحد على حدة ، وأول من رتب الأحاديث النبوية في مسند هو الإمام أبو داود الطيالسى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ، وأجمع المسانيد تدوينا للسنة والحديث هو شيخ الإمام البخارى الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى المتوفى سنة ٢٤١هـ، إذ جمع فيه قريبا من أربعين ألف حديث.

٢ - **الصحيح** : وهو الكتاب الذى يجمع الحديث طبقا لشروط دقيقة للصحة والاعتبار مشتملة على أبواب الفقه الأكبر (فقه العقائد) ، وهى المعروفة اليوم بالصحاح الستة، وهى بحسب ترتيب أهميتها : صحيح البخارى ، مسلم ، أبو داود، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة .

٣ - **السنن** : وهى الكتب التى رتبت الحديث طبقا لترتيب أبواب الفقه الكبير (فقه الشريعة) ، فتبدأ بأحاديث الطهارة، إلى آخر أبواب هذا الفقه، ومنها

سنن البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨هـ وسنن الدارقطني المتوفى سنة ٣٠٦هـ.

٤ - **المصنف** : وهو مثل السنن فى ترتيب الأحاديث ، وأهمها : مصنف عبد الرزّاق الصنعاني المتوفى سنة ٢١١هـ ومصنف أبي بكر بن أبي شيبة المتوفى سنة ٢٣٥ هـ.

٥ - **الموطأ** : وهو مثل السنن ، والمصنفات في ترتيب الأحاديث ، وأهمها : موطأ الإمام مالك المتوفى سنة ١٧٩هـ وموطأ محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٩هـ.

٦ - **المعجم** : وهو الكتاب الذى يرتب الأحاديث على أسماء الصحابة ، أو الشيوخ ، أو البلدان حسب ترتيب الحروف الهجائية لهذه الأسماء .فمثال المعجم على أسماء الصحابة : المعجم الكبير للطبراني المتوفى سنة ٣٦٠هـ.

ومثال المعجم على أسماء الشيوخ : المعجم الأوسط للطبراني أيضا.

ومثال المعجم على أسماء البلدان : معجم السفر لأبى طاهر السِّلَفي المتوفى سنة ٥٧٦ هـ.

٧ - **الجَامِع** : وهو كتاب الحديث المشتمل على الأبواب المختلفة من عقائد، وأحكام، ورقاق، وآداب وأكل وشرب وسفر ومقام ، وما يتعلق بالتفسير والتاريخ والفتن والمثالب وغير ذلك، مثل جامع الترمذى المتوفى سنة ٢٧٩هـ.

٨ - **المُسْتَخْرَج** : وهو الكتاب الذى يقوم راويه بتخريج أحاديث كتاب معين ولكن بأسانيد لنفسه من غير طريق صاحب الكتاب فيجتمع معه في شيخه أو من فوقه مثل : مستخرج أبى على الحسين بن على الخراساني المتوفى سنة ٣١٢هـ على صحيح الترمذي.

٩ - **الجُزْء** : جمع الأحاديث المروية عن رجل واحد من الصحابة أو من بعدهم مثل : جزء الحسن بن سفيان النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ ومستخرج

الإسماعيلى على البخارى . أو جمع الأحاديث فى موضوع واحد كجزء فى صلاة الضحى للسيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ أو جزء في قيام الليل للمروزى المتوفى سنة ٢٩٢هـ .

١٠- المُسْتَدْرَك : هو الكتاب الذى يستدرك فيه راويه ما فات راوى كتاب آخر من الأحاديث التى شرط على نفسه شروطا معينة لروايتها . مثل : المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابورى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ.

١١- المَوْضوع : هو كتاب جمع فيه صاحبه غالب ما رواه الوضاعون والكذابون، والغرض حصره فى مكان واحد ليعرف أنه كذب . مثل : الموضوعات لابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ واللآلى المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة للسيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ.

ومن هنا يعرف أنه بعد تدوين غالب السنة، واستقرار العلماء على تسجيلها فى الدفاتر والأسفار قَلَّت الحاجة إلى تجريح الرواة وتتبعهم كما كان الحال فى القرون الثلاثة الأولى، وصار جلّ اهتمام الرواة على نقل الأحاديث وروايتها من أسفارها المعتبرة، وليس من صدور الرواة، فاكتفى بتعديل الرواة على ستر الحال ، وثناء العلماء على الراوى، وشهادتهم له بالتقوى والصلاح دون الحاجة إلى قوانين وقواعد الجرح والتعديل التى نشأت فى عصر الرواية.

وبهذا نكون قد أجملنا القول فى معنى « الوحى » بنوعيه القرآن والحديث (ومنه الحديث القدسى)، إجمالاً غير مُخِلّ بالمفهوم العلمى للوحى.

على أن ما يجب أن أنبه عليه هو أن تقسيم الوَحْى إلى خفى وجلى، ليس من قبيل التقسيم الشرعى المنصوص عليه ، وإنما هو تقسيم اجتهادى تصورى نابع من البحث والنظر والاستقراء ، للتسهيل على الفهم العام.

كما يجب التنبيه على أن « الوحى» بأنواعه كلها وَحْىٌ واجب الاعتبار لا

يصح إنكار جزئية من جزئياته إذا صح ورودها طبقا للمواصفات العلمية الدقيقة التي حققها العلماء ، ووضعوا ضوابطها.

فالسنة الثابتة بالنقل المحرر الدقيق ، كالقرآن سواء بسواء تستقل بالتشريع ويثبت بها الأحكام، ومنكرها منكر للوحي.

قال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (١).

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (٢).

وقال ﷺ : « ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه » (٣).

وقالت الصحابة - وهم الذين عاينوا الوحي وشاهدوه - : «كان جبريل ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن ». « وسأل رجلٌ عبد اللهِ بن الشخير - رضى الله عنه - كالمعترض: « حدثنا بالقرآن . كل يومٍ تقولُ قالَ رسول الله .. قال رسول الله !! أما تَقُلْ يوماً قال الله ؟! فقال له عبدُ الله : أما وإنك لرجل أحمق، والله ما نبغي عن الله بديلاً ، ولكنَّا نريد من هو أعلم منَّا بالله (يعني رسول الله ﷺ).

يا هذا أوَ تجدُ الظهر في كتاب الله أربعا لا يجهر فيه بالقراءة ؟»

والواقع أن منكر السنة هو أصلاً منكر للقرآن ، لأن السنة والقرآن كليهما وَحْيٌ مصدرهما النبيُّ ﷺ . فالذي أعْلَمَنَا بالقرآن هو النبي ﷺ، ولولاه ما عرفنا القرآن فكيف ننكر قوله بالسنة ؟.

ولا ينسحب هذا الكلام على ما انفك عن ضوابط العلم من نقل الرواة المجرحين، فالمجرحون من الرواة جُنِّبت رواياتهم ، وغُرْبلت ، ووضعت تحت مجهر البحث العلمي والنقد الفني المنضبط ، وقسمت الروايات كلها إلى :

---

(١) الحشر : ٧.　　(٢) الأحزاب : ٣٦ .　　(٣) النساء : ٨٠.

صحيح ، وحسن ، وضعيف، وموضوع . وجُعل لكل قسم دواوين ، وأسفار مستقلة منضبطة . كما عُرِفَ كل راو من نقلة الوَحْي معرفة تامة كاملة أحاطت بكل دقة باسمه، واسم أبيه. وأجداده، وكنيته ، ولقبه، وَسنةَ مولده ووفاته،وحياته، وشيوخه وتلاميذه، وكل ما ينفي الجهالة عنه في دينه أو خلقه ، ومحله من التعديل والجرح، والإتقان والضبط ، بحيث لم يبق هناك إسناد ولا متن لم يخضع لِمبْضَع العلم سندًا أو متناً . حتى صار الإسناد وتوثيق الكلام ضابطا من ضوابط أمة الإسلام وخاصية، وميزة من المزايا لا تشاركها فيها أمة سواها.قال عبد الله بن المبارك رضي الله عنه :« الإسناد من الدين ، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء »(١).

وروى عن محمد بن أسلم الطوسي قوله : « قرب الإسناد قُرْبٌ أو قُربة إلى الله عزوجل »(٢).

فما صَحّ نقله أخذ بعين الاعتبار في تشريع الحلال والحرام .

نتيجة هذا البحث:

أن السنة النبوية المشرفة جزء من الوحي لا ينفصل عنه، أخذت حَظّها من الحفظ مثلما أخذ القرآن سواء بسواء، وأخذت حظّها من الجمع والتدوين مثلما أخذ القرآن سواء بسواء غير أن جمعها وتدوينها تأخر لحين الإنتهاء من استقرار القرآن الكريم بين دفتيه، حتى إذا ما أمن عليه عدم الاختلاط بغيره وأصبح متميزاً جَدَّت الهمم لتدوين السنة مثلما جدّ لتدوين القرآن. ثم أخذ الوحي (قرآنا وسنة) مكانه في إنشاء الحضارة الإسلامية ، ثم رقّيها، ثم استقرارها .

---

(١) علوم الحديث لابن الصلاح (ص٣٥٧)، والأحاديث التساعية (ص ٤٨ من المقدمة).

(٢) الأحاديث التساعية ص ٤٨ المقدمة.

المبحث الرابع : القرآن الكريم (الوحى الجلى)

مطلب فى التعريف بالقرآن الكريم :

(١) فى اللغة :

أ - إما أن يكون مصدر على وزن : « فُعْلاَن » ، ويكون فعلــه : « قرأ » بالهمزة ومنه قوله تعالـــى : ﴿إِنَّ عَلَيْنَـا جَمْعَـهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾﴾ [١] أي قراءته.

« وَقَرَأَ » الشيء؛ أي : جمعه، وضمـه بعضه إلى بعض ، ويكون معنى : « القرآن : الجمع، والضم؛ سمي بذلك لأنه : يجمع الآيات فيضمها فى سورة ، ويجمع السور فيضمها بعضها إلى بعض [٢].

وقيل: سمي بذلك لكونه جامعًا لثمرة الكتب السماوية السابقة ، أو لكونه جامعاً لثمرة كل العلوم، كما أشار الله تعـــالى إلى ذلك بقوله : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [٣].

ب - وإما أن يكون من : « قَرَنَ » تقول : قَرَنَ الشيء بالشيء : إذا ضمه.

جـ - وإما أن يكون لفظ « قرآن ». اسم علم مرتجل على كتاب الله غير مشتق من أي فعل [٤].

(٢) فى الاصطلاح :

حاول بعض الباحثين حصر القرآن الكريم في تعريف ذى قيود مميزة لخصائص القرآن فقال :

هو كلام الله تعالى المنزل على محمد ﷺ ، المكتوب بين دفتي المصحف، المبدوء بسورة الحمد ، المختوم بسورة الناس، المعجز بلفظه ومعناه، المُتَعَبَّد

---

(١) القيامة : ١٧ .

(٢) تاج العروس : ١/ ٣٧٠.

(٣) النحل : ٨٩.

(٤) مباحث فى علوم القرآن : للقطان (ص ١٦).

بتلاوته، المنقول بالتواتر».

ورغم أن القرآن الكريم لا يمكن حصره في تعريف اصطلاحي لتعذر جمع قيوده الضابطة لمعناه، الحاصرة لأوصافه؛ غير أن هذا التعريف اشتمل على أشهر قيود المُعَرَّف، وبيانها على النحو التالي[1]:

القيد الأول:

إضافة الكلام إلى الله - عز وجل - فكانت العبارة « كلام الله » فخرج بهذا القيد : سائر كلام المخلوقين : كالملائكة والرسل والإنس والجن .

القيد الثاني:

« المنزل » خرج بهذا القيد : الكلام الإلهي الذي استأثر الله - تعالى به ، ولم ينزله على أحد من خلقه . وهذا المنزل بالنسبة لغير المنزل قليل جداً ؛ يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ﴾[2].

القيد الثالث:

« على سيدنا محمد ﷺ » خرج بهذا القيد : الكلام الإلهي المنزل على الأنبياء والمرسلين قبله مثل : التوراة والزبور والإنجيل وصحف آدم وشعيب وإبراهيم وموسى يقول الحق - تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) ﴾[3].

---

(١) أنوار البيان في علوم القرآن ص ٧ - ١١.

(٢) لقمان :٢٧.

(٣) النساء : ١٦٣، ١٦٤.

القيد الرابع :

« المكتوب بين دفتي المصحف ، وذلك أن النبي صلوات الله عليه وسلم كان يدعو كتبة الوحي، ويأمرهم بكتابة الآيات والسور إثر تلقيها من جبريل - عليهما السلام- وقد أشار إلى ذلك قوله - سبحانه وتعالى - :﴿ وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ ﴾[1].

القيد الخامس :

« أوله سورة الحمد وآخره سورة الناس » خرج بهذا القيد ما نسخت تلاوته ، وما نسخت تلاوته وحكمه معاً [2].

القيد السادس :

« المعجز بلفظه ومعانيه» فقد تحدي الله - سبحانه وتعالى - الإنس والجن، وطلب إليهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور أو بسورة واحدة فعجزوا قال تعالى ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨ ﴾[3]. وقال - عز وجل - ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٣ ﴾[4].

هذا ؛ من جهة اللفظ ، أما من جهة المعاني : فقد ثبت إعجازه للخلق كافة: فمن نظر إلى آيات القرآن وجدها محدودة العدد إذا ما قورنت بالمعاني التي تندرج تحت الألفاظ ولا يزال عطاء القرآن ممتداً إلى يوم الجزاء. قال - جلت حكمته - ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩ ﴾[5].

---

(١) الطور : ١-٣. (٢) أنظر مناهل العرفان ٢/ ١١٠ ، ١١١. (٢) الإسراء : ٨٨ .
(٣) هود : ١٣ . (٤) البقرة : ٢٣. (٥) النحل :٨٩ .

وقد سجل لنا التاريخ بعضا ممن اختلت عقولهم وفسدت عقائدهم : حاولوا معارضة القرآن ففضح أمرهم وهموا بمالم ينالوا ، إذ أن المطلع على كلامهم يجده هراء ولغوا لا يقوى على مواجهة الفصيح من كلام الخلق فضلا عن قدرته على مواجهة كلام الخلاّق ، فكانت محاولاتهم بمثابة العدم المحض .[1]

ولقد كان القرآن معجزاً لأنه من لدن قوى قاهر أحاط بكل شئ علماً، متصف بصفات الكمال ومتنزه عن صفات النقص فكان كلامه معجزاً لذلك، وكلام المخلوقين صادر عن ضعيف ناقص لا يملك أسباب الكمال، لذا فقد جاء غير معجز ولا سالم من صفات النقص.

ويخرج بهذا القيد - أيضا - الحديث القدسى ، فهو منسوب إلى الله تعالى ، لكنه لم يصل بألفاظه ومعانيه إلى حد الإعجاز.

القيد السابع:

« المتعبد بتلاوته » فقد تعبدنا الله - عز وجل - بتلاوته واعتبرها الشارع الحكيم عبادة فى حد ذاتها ، فى الصلاة وفى خارجها. قال تعالى :﴿ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ [2] فقد أمر بالتلاوة فى الصلاة وجعلها ركنا من أركانها لا تصح الصلاة بدونها. وقال - تبارك وتعالى - آمراً بالتلاوة حاضا على التدبر والعمل بما فى القرآن من أوامر ونواه حيث قال :﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[3]، وبهذا القيد خرج الحديث القدسى والحديث النبوى ، والقرآن المنسوخ التلاوة لأن الله لم يأمرنا بتلاوتها فى الصلاة ولا فى خارجها ولم يتعبدنا بها كذلك.

القيد الثامن:

« المنقول بالتواتر » لم يحظ كتاب من الكتب السماوية بمثل ما حظى به

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٥٧٧.
(٢) المزمل :٢٠.
(٣) القمر:١٧.

القرآن الحكيم من حيث قوة السند الناقل له حتى كان معصوماً ومحفوظاً من أيدي العابثين، والمقصود بالتواتر : هو أن ينقله جمع غفير لا يمكن تواطؤهم على الكذب - عن جمع مثلهم حتى يتصل السند بالمنزّل عليه ﷺ. وهكذا قد نقل إلينا القرآن بسوره وآياته بهذا الطريق القطعي الثبوت ، وقد هيأ الله له الأسباب حتى كان كذلك تحقيقاً لوعده بحفظه حيث قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.(١)

ويخرج بهذا القيد : ما نسخت تلاوته ، والقراءات غير المتواترة سواء أكانت مشهورة أم غير ذلك مثل قراءة عبد الله بن مسعود (متتابعات) عقب قوله تعالى : ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾ ، وكقراءته- أيضاً - رضي الله عنه (متتابعات) عقب قوله - عز وجل - ﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ، فإن شيئاً من ذلك لا يسمى قرآنا ولا يأخذ حكمه (٢).

فإن قال قائل : لم اهتم علماؤنا اهتماماً بالغاً بتدوين مثل هذه القراءات أو بمَا نسخت تلاوته على حين أنها لا يطلق عليها حكم القرآن ولا تسمى به ؟

قيل : كان اهتمامهم بها (وبتدوينها) من أكبر الأدلة على مدى اهتمام المسلمين عامة والصحابة والأولين خاصة بتدوين كل ما يتعلق بكتاب ربهم سواء وصل سنده إلى حد التواتر أولا. كما أنه يحتاج إلى غير المتواتر عند اختلاف الأحكام الفقهية في ترجيح أحدها على الآخر (٣).

مطلب في بعض أسماء القرآن، وأوصافه :

(أ) أسماؤه : للقرآن أسماء كثيرة أهمها :

(١) القرآن : قال تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ (٤).

(٢) الكتاب : قال تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ (٥).

---

(١) الحجر :٩. (٢) مناهل العرفان ١/ ١٣ ، ١٤. (٣) المرجع السابق ١/ ١٤١. (٤) الإسراء:٩.
(٥) البقرة :٢ .

(٣) الفرقان : قال تعالى : ﴿ تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده﴾ [١].

(٤) الذكر: قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [٢].

(٥) التنزيل : قال تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾ [٣].

(٦) كلام الله : قال تعالى : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ [٤].

(ب) أوصافه : وصف الله تعالى القرآن الكريم بأوصاف كثيرة منها :

١- أنه : « عربى، وبشير، ونذير» قال تعالى : ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً﴾ [٥].

٢- أنه : « هدى، وشفاء، ورحمة، وموعظة» قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ [٦].

٣- أنه : نور: ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ [٧].

٤- أنه : بُشْرى : ﴿ مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين) [٨].

٥- أنه : عزيز ﴿ وإنه لكتاب عزيز﴾ [٩].

---

(١) الفرقان:١ . (٢) الحجر:٩. (٣) الشعراء: ١٩٢. (٤) التوبة: ٦ . (٥) فصلت :٣-٤.
(٦) يونس:٥٧ . (٧) النساء:١٨٤. (٨) البقرة: ٩٧ . (٩) فصلت:٤١ .



القسم الثاني

علوم القرآن

القسم الثاني

علوم القرآن الكريم

تمهيد :

علوم القرآن بالمعنى الإضافي : هى كل ما يتعلق بعلوم الحضارة الإسلامية التى ذكرنا لك أن أساسها الوحى، سواء كانت هذه العلوم دينية، أم عربية.

فعلوم القرآن إذاً تشمل جميع علوم الحضارة الإسلامية من فقه، وتفسير، وحديث، وعقيدة، ونحو، وصرف، وبلاغة، وأدب. وغير ذلك .

علوم القرآن بالمعنى الإصطلاحى : ويقصد بها مجموعة العلوم التى تتعلق مباحثها بالقرآن الكريم خاصة سواء ما يتعلق بنزوله، وترتيبه، وجمعه، وكتابته، وقراءته، وتفسيره، وإعجازه، وناسخه، ومنسوخه، ومكيّه ومدنيه، ودفع الشبه عنه، إلى آخره.

موضوع علوم القرآن : هى مسائلها المتعلقة بالقرآن الكريم من أىٍّ ناحية من النواحى المذكورة فى التعريف، كل علم فيما يخص مسائله.

(١) فعلم التفسير : موضوعه: القرآن الكريم من حيث شرح آياته، وبيان معناها .

(٢) وعلم الناسخ والمنسوخ: موضوعه : القرآن الكريم من حيث معرفة الآيات التى رفع حكمها بخطاب شرعى آخر متراخ عنه فى النزول.

(٣) وعلم القراءات : موضوعه: القرآن الكريم من ناحية لفظه وأدائه.

وهكذا سائر علوم القرآن الباقية موضوعها كلها « القرآن الكريم» ولكن بالحيثيات المختلفة التى تتعلق بكل فنٍّ على حدة.

علاقة علوم القرآن بالمعنى الإصطلاحى، بعلوم القرآن بالمعنى الأضافى :

إذا كانت علوم القرآن بالمعنى الإضافى تشمل كافة العلوم المتعلقة بالحضارة

الإسلامية بالمعنى العام، وأن علوم القرآن بالمعنى الإصطلاحى تتعلق بالقرآن الكريم بالمعنى الخاص.

فإن العلاقة بين المعنى الإصطلاحى، والمعنى الإضافى كعلاقة الفرع بالأصل، ونسبته إليها «كنسبة الفرع إلى أصوله، أو الدليل إلى مدلوله. كما عبر الزرقانى فى « المناهل » [1].

فائدة علوم القرآن الكريم:

لما كانت الحضارة الإسلامية ككل مبنية أصلاً على «الوحى». سواء أكان جلياً وهو «القرآن». أم خفياً، وهو «السنّة» . فأن «المفسِّر» للقرآن، والشارحَ للسنة يحتاج إلى أدوات يُفسِّر بها القرآن لتعينه على تقريب مراد الله تعالى من آياته إلى أذهان الناس.

ولا وسيلة لهذا إلا بمعرفة العلوم التى تعينه على ذلك.

ومثل علوم القرآن هنا كمثل علوم الحديث بالنسبة لمن أراد أن يدرس علم الحديث. وهو ماعبر عنه السيوطى فى مقدمة« الإتقان». حين قال :

« ولقد كنت فى زمان الطلب أتعجب من المتقدمين إذ لم يدونوا كتاباً فى أنواع علوم القرآن، كما وضعوا ذلك بالنسبة إلى علم الحديث». ثم أخذ يستعرض ما وقع له من مشايخه في علوم القرآن [2]. ....

وبهذا يعرف فى الجملة أن من أراد أن يقترب من مراد الله تعالى فى آيات القرآن فعليه أن يلم إلماماً كافياً بعلوم القرآن فهى وسيلته التى تعينه على ذلك.

أهمية علوم القرآن:

(١) لا شك أن القرآن الكريم نفسه هو أساس مادة التشريع والأحكام، وبيان

---

(١) مناهل العرفان لمحمد عبد العظيم الزرقانى ١/ ٢٨.

(٢) مقدمة كتاب « الإتقان» للسيوطى ١/ ٤.

الحلال والحرام، ولا يعرف ذلك إلا من خلال معرفة علوم القرآن الكريم كمعرفة المكي والمدني ، وأول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل، ليتوصل بذلك إلى ما إذا كان الحكم منسوخاً أو محكماً، فهذه العلوم هي التي تَمدُّ المفسر ببيان التفسير، وتمد الفقيه بمعرفة الأحكام ، وتمد الأصولي بالقواعد الكلية.

(٢) ولمواقع النظم القرآني غرض لا يعرفه إلا من تمرس بعلم البلاغة، ولبيان إعجاز القرآن، وبلاغته يلجأ إلى دراسة علم إعجاز القرآن ودراسة أسلوبه.

(٣) وكذلك فإن معاني القرآن، وأسلوب القرآن، وضمائره، كلها تتضافر مع علم الناسخ والمنسوخ، والمكيّ والمدني، المتقدم والمتأخر، وغيرها من علوم القرآن في خدمة القضايا الكلية التي نزل القرآن أصلاً لمعالجتها سواء في النواحي الإجتماعية، أم السياسية، أم الاقتصادية، أم الحربية، أم الأخلاقية، أم غير ذلك .

تطور علوم القرآن

يرى كثير من الباحثين أن علوم القرآن لم تترعرع وتشب عن الطوق إلا على يد بدر الدين الزركشي في نهاية القرن الثامن الهجري.

غير أنه يحسن بنا أن نلقي الضوء في اختصار على تاريخ بدء هذا العلم ومراحل نموّه في النقاط التالية:

* نشأت علوم القرآن في صدور الصحابة - رضوان الله عليهم - حيث كانوا أعلم الناس بالقرآن ومعرفة علومه دون أن تكو ن لهذه العلوم ثمة شئ من التدوين أو التسجيل، شأن كافة العلوم التي نبتت في صدور الصحابة، وعرفوها وميزوا آيات الذكر الحكيم على ضوئها دون أن نُسمّي هذه العلوم ،فضلاً عن أن يكون لها نصيب من التدوين، إذ كان النهي عن تدوين غير القرآن أمر صاحب الرسالة - صلوات الله وسلامه عليه - مخافة أن يلتبس غير القرآن به.

وما أن كانت الخلافة الراشدة الثالثة حتى هبَّ عثمان بن عفان - رضي الله عنه- بجمع القرآن على لغة واحدة هي لغة قريش، وعلى رسم واحد في الكتابة

عُرِف حتى يومنا هذا باسم « الرسم العثماني» . وكان هذا العمل بعد أن بلغه أن المسلمين في الأمصار من أهل القبائل المختلفة يكادون يتقاتلون لاختلاف القراءات والروايات .

وما أن جُمع المصحف على لغة واحدة ،ورسم واحد ،حتى نسخت منه عدة نسخ أرسلت إلى مختلف الأمصار الإسلامية، وأحرق ما عداها.

وبهذا يكون خليفة المسلمين الثالث عثمان - رضى الله عنه- قد وضع أول لبنة فى « علم رسم القرآن». وهو أحد « علوم القرآن» وهوعلم الرسم والضبط.

ولما انتقل مقر الخلافة من المدينة إلى الكوفة فى عهد على - كرم الله وجهه- وانتشر أصحاب رسول الله ﷺ : ظهرت مدارس التفسير فى الأمصار الإسلامية وعلى رأسها:

(١) المدرسة المكية : وشيخها ابن عباس - رضى الله عنهما- وتلاميذها: مجاهد، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغيرهم .

(٢) المدرسة المدنية: وشيخها أبىّ بن كعب - رضى الله عنه- وتلاميذها : أبو العالية، ومحمد بن كعب القرظى، زيد بن أسلم العدوى، وغيرهم.

(٣) المدرسة العراقية: وشيخها عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه- وتلاميذها: الحسن البصرى، علقمة النخعى، ومسروق بن الأجوع، وعامر الشعبى، وغيرهم .

وقد قدَّم لنا المعنيون برصد علوم القرآن مادة علمية وفيرة، سواء ما يتعلق منها بإنشاء علوم القرآن علماً علماً ، أو ما يتعلق منها بحصر ما كتب حولها منذ نشأة هذه العلوم.

وإذا كان القرآن الكريم هو أصل الأصول فى إنشاء الحضارة الإسلامية فلا غرابة أن تكون العلوم التى تأسست على هذا الأصل قد بلغت عشرات العلوم.

وإذا نحن تتبعنا ما رصده بدر الديـن الزركشي، وجلال الدين السـيوطي من علوم القرآن الكريم وحده لوجدنا أنها تعدّت السبعين علماً.

وهذا السـيوطي على وجـه التحـديد يذكر لنا ثمـانين علماً من علوم الـقرآن الكريم.

والناظر فيها إجمالاً يجدها تندرج تحت ستٍ مجموعات يمكن إجمالها على النحو التالي:

المجموعة الأولى: علوم تتعلق بنزول القرآن الكريم، وتبلغ ستة عشر علما هي:

١- علم معرفة: ما نزل بمكة، وما نزل بالمدينة.

٢- علم معرفة: ما نزل في الحضر، وما نزل في السفر.

٣- علم معرفة: ما نزل في الليلي، وما نزل في النهار.

٤- علم معرفة: مانزل في الصيف، وما نزل في الشتاء.

٥- علم معرفة: ما نزل في الفراش، وما نزل في النوم.

٦- علم معرفة: ما نزل في الأرض، ومانزل في السماء.

٧- علم معرفة: أول مانزل من القرآن.

٨- علم معرفة: أخر مانزل من القرآن.

٩- علم معرفة: أسباب نزول آيات القرآن وسوره.

١٠- علم معرفة: ما أُنزل من القرآن على لسان بعض الصحابة.

١١- علم معرفة: ما تكرر نزوله من الآيات، أو السور.

١٢- علم معرفة: ما تأخر حكمه عن نزوله، وما تأخر نزوله عن حكمه.

١٣- علم معرفة: ما نزل مفرقا، وما نزل جمعا.

١٤- علم معرفة: ما نزل مشيّعاً، وما نزل مفردًا.

١٥- علم معرفة: ما أنزل من القرآن على بعض الأنـبياء، وما لم ينزل منه

على أحد قبل محمد ﷺ .

١٦- علم معرفة :كيفية إنزاله.

المجموعة الثانية: علـــوم تتـعلـــق بذات القـرآن الكريم ، وتصل إلى تسعـة علوم وهي :

١٧- علم معرفة : أسماء القرآن ، وأسماء سوره .

١٨- علم معرفة : عدّ سوره، وآياته، وكلماته، وحروفه.

١٩- علم معرفة : فواصل الآي .

٢٠- علم معرفة : فواتح السّور .

٢١- علم معرفة : خواتم السور.

٢٢- علم معرفة : مناسبة الآيات، والسور لما قبلها، وما بعدها.

٢٣- علم معرفة : فضائل القرآن .

٢٤- علم معرفة : أفضل القرآن، وفاضله.

٢٥- علم معرفة : خواص القرآن .

المجموعة الثالثة: علوم إجـرائية تتـعلق بالقراءة، والكتـابة ، والآداب، وتبلغ عشرة علوم .

أ- ما يتعلق بالقراءة:

٢٦- علم معرفة : أماكن الوقف، وأماكن الابتداء في القراءة .

٢٧- علم معرفة : الإدغام ، والأظهار، والإخفاء، والإقلاب.

٢٨- علم معرفة : ما ينبغي أن يمد، وما ينبغي أن يقصر.

٢٩- علم معرفة : الإمالة، والفتح .

٣٠- علم معرفة : تخفيف المهموز.

٣١- علم معرفة : الموصول لفظا، المفصول معنى .

ب - ما يتعلق بالكتابة:

٣٢- علم معرفة : رسم خط المصحف.

٣٣- علم معرفة : جمع القرآن ، وترتيبه .

٣٤- علم معرفة : كيفية تحمله، وحفظه .

٣٥- علم معرفة : آداب تلاوته ، وأداب تاليه.

المجموعة الرابعة : علوم تتعلق بدرجة تَحَمُّل القرآن عن السلف حفظا، ورواية. وتصل إلى ثمانية علوم هى :

٣٦- علم معرفة : حفّاظه ، ورواته.

٣٧- علم معرفة : العالى والنازل من أسانيده.

٣٨- علم معرفة : المتواتر.

٣٩- علم معرفة : المشهور .

٤٠- علم معرفة : الآحاد .

٤١- علم معرفة : الشاذ.

٤٢- علم معرفة : المدرج.

٤٣- علم معرفة : الموضوع .

المجموعة الخامسة: هى العلوم المستنبطة من القرآن ، وهى أنواع :

أ- علوم اللغة، والنحو، والبلاغة.

٤٤- علم معرفة : مفردات القرآن .

٤٥- علم معرفة : غريب القرآن .

٤٦- علم معرفة : ما وقع فى القرآن بغير لغة أهل الحجاز.

٤٧- علم معرفة : ما وقع فى القرآن بغير لغة العرب.

٤٨- علم معرفة : إعراب القرآن .

٤٩- علم معرفة : المحكم والمتشابه.

٥٠- علم معرفة : العام والخاص.

٥١- علم معرفة : المجمل والمبين.

٥٢- علم معرفة : مطلقه ومقيده.

٥٣- علم معرفة : مشكلة ، وموهم الاختلاف ، والتناقض.

٥٤- علم معرفة : مقدمه، ومؤخره .

٥٥- علم معرفة : منطوقه ، ومفهومه .

٥٦- علم معرفة : الخطاب في القرآن ، ووجوهه.

٥٧- علم معرفة : حقيقة القرآن ومجازه .

٥٨- علم معرفة : تشبيهه ، واستعارات.

٥٩- علم معرفة : كناياته، وتعريضاته.

٦٠- علم معرفة : الحصر، والاختصاص.

٦١- علم معرفة : الإيجاز والإطناب .

٦٢- علم معرفة : الخبر والإنشاء.

٦٣- علم معرفة : بديع القرآن .

٦٤- علم معرفة : إعجاز القرآن .

٦٥- علم معرفة : الوجوه والنظائر.

٦٦- علم معرفة : المتشابه.

٦٧- علم معرفة : المبهم .

٦٨- علم معرفة : أسماء من نزل فيهم القرآن .

٦٩- علم معرفة : ما وقع في القرآن من الأسماء ، والكنى، والألقاب .

٧٠- علم معرفة : أمثال القرآن .

٧١- علم معرفة : أقسام القرآن .

٧٢- علم معرفة : جدل القرآن .

٧٣- علم معرفة : الناسخ والمنسوخ .

ب- علوم أخرى أشار إليها القرآن الكريم تنبيها لا تفصيلا :

٧٤- كعلم الأجنة، والطب النفسي والعضوي، والعلوم الفلكية، والجغرافية، وعلوم الحرف، والصناعات، وغيرها .

المجموعة السادسة : وهي علوم تتعلق بخدمة القرآن تفسيراً، واستنباطاً، وبياناً وتأويلا .

٧٥- علم معرفة : تفسير القرآن .

٧٦- علم معرفة : الأدوات التي يحتاج إليها المفسر.

٧٧- علم معرفة : القواعد النحوية التي يحتاج إليها المفسر.

٧٨- علم معرفة : شروط المفسر وآدابه.

٧٩- علم معرفة : غرائب التفسير .

٨٠- علم معرفة : طبقات المفسرين .

وللباحثين تفريع هذه العلوم واستنباط ما يشاءون منها من علوم القرآن الكريم، فهو معين لا ينضب، وقد قال من نزل عليه ﷺ :

« هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه ».(١)

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ١٧٢ الحديث رقم ٢٩٠٦ .



الباب الأول

علم التفسير



الباب الأول

علم التفسير

تمهيد، وتعريف:

من المفيد جداً أن نقول: إن علم «التفسير» هو أصل علوم القرآن كلها؛ وهو أول ما نشأ من هذه العلوم، وكانت نشأته بذرة طيبة نبتت وترعرعت في أحضان «الوحي».

فالمفسر، والمبين الأول عن الله تعالى، هو رسول رب العالمين، ومن أُنزل عليه القرآن الذي طُولب بأن يكون هو المبين، والموضح، والمفسر له.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1].

وكان تفسير النبي ﷺ في الحدود المطلوبة التي احتاج الناس إليها في زمنه، فلم يُؤْثَر عنه ﷺ أنه فسَّر جميع القرآن آية آية.

ذلك أن القرآن كان ينزل فيُتَرْجَم إلى سلوك، وواقع عملي، وكان هذا السلوك الواقعي هو أعظم ما يُفَسر القرآن ويُبيِّنه، ويوضِّحه، إلى جانب أن القرآن كان ينزل بلغة العرب، وما تعارفوا عليه من استعمالاتها البلاغية المختلفة، ولم يكونوا قد اختلطوا - بَعْدُ - بغيرهم من أصحاب اللغات الأخرى.

وكان منهج النبي ﷺ في بيانه وتفسيره للقرآن يقوم على القرآن نفسه، فما هو مبهم في موضع موضح في موضع آخر كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[2]. عُرِّفوا في سورة النساء بأنهم النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[3].

---

(١) النحل: ٤٤.

(٢) فاتحة الكتاب: ٧.

(٣) النساء: ٦٩.

كما اعتمد تفسيره ﷺ على ما كان « يوقفه الوحى » عليه من التفسير، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾(١) ؛ قال ﷺ : الكوثر «نهر فى الجنة أعطانيه ربى» (٢) .

أو ما كان ينزل لسبب من الأسباب الكثيرة الواردة فى مظانها المختلفة من علم التفسير .

ولم يكن ثَمَّةَ حاجة إلى تدوين التفسير فى عهده ﷺ لبواعث هامة اقتضتها النبوة ، وهى النهى عن تدوين شئ « غير القرآن» آنذاك ، وهو باعث لا يدركه إلا النبىّ بينما يلوكه بالنقد من يجهل مثل هذا الباعث الهام .

ولكن المتفحص لهذا الباعث يرى أنه من قبيل الإرهاصات النبوية للمستقبل، فعدم تدوين شئ من تفسير النبىّ ﷺ ، أو شئ من أحاديثه فى غير مجال التفسير، أفسح المجالات الواسعة لظهور علوم الحضارة الإسلامية، وهى مئات العلوم.

لأنه لَماَّ لم تُدوَّن علوم القرآن، ولا علوم الحديث؛ ظهر الإفتيات على الأمة ورسولها بظهور الكذابين، والوضاعين، فقام الجهابذة من العلماء لوضع القوانين العلمية الضابطة لعلوم القرآن ، ولعلوم الحديث، ولولا ذلك ما شحذت الهمم لمثل هذا القيام .

وكان أول ما ظهر علم تفسير القرآن الذى صار بعد ذلك محتاجًا إلى إظهار كافة علوم القرآن عِلماً علماً.

فالمفسِّر صار يحتاج فى تفسيره إلى معرفة، القراءات الواردة عن المعصوم ﷺ لأن هذه القراءات بمثابة بيان للقرآن ، وتفسير له .

واحتاج فى تفسيره إلى معرفة علوم نزوله: كالمكى والمدنى، وما نزل أولاً، وما نزل آخراً ؛ وغير ذلك من علوم القرآن .

وكان كلما تباعد الزمان عن وقت نزول الوحى قَلَّت الحاجة إلى ذلك فى زمن التنزيل لقربهم من التعامل الذاتى مع الوحى ، وشارحه المكلف بالبيان وهو

---

(١) سورة الكوثر

(٢) صحيح البخارى بحاشية السندى ٣/ ٢٢١.

رسول الله ﷺ .

فلا غرابة إذاً أن يكون التفسير هو أمُّ علوم القرآن كلها، وأنها إنما ابتكرت ونشأت لخدمة التفسير، فالتفسير إذاً علم خادم لكتاب الله عز وجل، وعلوم القرآن كلها، أو جُلُّها - على أقل تقدير - خادمة لعلم التفسير .

فأصبح من اللازم علينا أن نجعل منهجنا في هذا المدخل وفقاً لما عنونّا به هذه الدراسة وهي (مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن) ليُخْبِرَ عنوان هذه الدراسة عمّا يحتويه باطنها من القصد العلمي، ويلمس كبد الحقيقة منها .

تعريف التفسير: يستعمل التفسير في الكشف الحسي ، كما يستعمل في الكشف عن المعاني المعقولة، والاستعمال الثاني أكثر .

التفسير : لغة مأخوذ من «الفَسْر» وهو: الإبانة وكشف المغَطَّى.

والتأويل : رَدّ أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر.

وقال ثعلب : « التفسير والتأويل واحد»[1].

واصطلاحاً : عرفه الزركشي في « البرهان» بأنه :

١ - علم يُعرف به فهم كتاب الله تعالى المنزل على محمد ﷺ ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكَمه[2].

٢- أو هو :«علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية».

٣- أو هو : علم يبحث في نزول الآية وسورتها وأقاصيصها، والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفسرها .

ويظهر من هذه التعاريف أن موضوع التفسير هو آيات القرآن الكريم من حيث بيان معانيها واستخراج أحكامها وحكمها.

---

(١) القاموس المحيط (مادة: فَسَر). (٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ١٣ .

مبحث في : نشأة التفسير ومراحله

١ - كان القرآن ينزل منجماً على رسول الله ﷺ على مدى ثلاثة وعشرين عاماً فمنه ما كان ينزل على الحوادث والأسباب، فيكون هذا بيانه وتفسيره، ومنه ما كان ينزل ابتداء، وفيه من بواطن العلم ما لا يعرفه أحد إلا رسول الله ﷺ فيفسره ويوضحه للناس كما ورد في تفسير الكوثر في قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قال : « الكوثر نهر في الجنَّة أعطانيه ربي » .

فكان النبي ﷺ هو المصدر الأول للتفسير ، والمرجع الأساسي المبين لمراد الله - تعالى - على وجه الحقيقة .

٢ - وانتقل علم رسول الله ﷺ في معرفة كتاب الله وبيان معاني آياته إلى فئة معينة من أصحابه - رضي الله عنهم - وكانوا ستة عشر نفراً هم أعلم الأمة بالتفسير وهم :

(أ) من الرجال :

١ - أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -
٢ - عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -
٣ - عثمان بن عفان - رضي الله عنه -
٤ - علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -
٥ - عبد الله بن عباس - رضي الله عنه -
٦ - عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -
٧ - أُبيّ بن كعب - رضي الله عنه -
٨ - زيد بن ثابت - رضي الله عنه -
٩ - أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه -
١٠ - عبد الله بن الزبير - رضي الله عنه -
١١ - أنس بن مالك - رضي الله عنه -
١٢ - أبو هريرة - رضي الله عنه -
١٣ - عبد الله بن عمر - رضي الله عنه -
١٤ - عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه -
١٥ - جابر بن عبد الله - رضي الله عنه -

(ب) ومن النساء : ١٦ - عائشة - رضي الله عنها .

أما الستة نفر الأخيرة فلم يرو عنهم من التفسير سوى النذر اليسير وبقى علم التفسير منحصراً كله فى العشرة رجال الأول (١) .

غير أن المكثرين منهم فى رواية التفسير عن النبىّ ﷺ ،بله الاجتهاد أيضاً فى الحدود الشرعية انتهى إلى أربعة منهم سنذكرهم أيضاً فى الترتيب التالى بحيث الأكثر فالأقل وهم :

١ – عبد الله بن عباس – رضي الله عنه –   ٢ – عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه –

٣ – عليّ بن أبى طالب – كرم الله وجهه   ٤ – أبىّ بن كعب – رضي الله عنه –

، وعلى علم هؤلاء الأربعة نما علم التفسير وترعرع .

كما نشأت على أيديهم أهم مدارس التفسير فيما بعد، عندما تفرق الصحابة فى الأمصار بسبب نقل الخلافة الإسلامية من المدينة إلى الكوفة فى زمن الخليفة الرابع علىّ بن أبى طالب – كرم الله وجهه ، وبسبب الفتوحات الإسلامية .

(١) فنشأت المدرسة المكية فى التفسير على يد ابن عباس –رضى الله عنهما–

(٢) ونشأت المدرسة المدنية على يد أُبىّ بن كعب – رضي الله عنه –

(٣) ونشأت مدرسة العراق فى الكوفة على يد عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه–

وبهذا انتقل التفسير من المرحلة الأولى فى عصر الصحابة إلى المرحلة الثانية فى عهد التابعين، ثم انتقل من صدور التابعين إلى صدور أتباع التابعين .

وكان التفسير خلال هذه العهود الثلاثة يحتفظ بطابع الرواية والمشافهة من الصدور إلى الصدور، لأنه كان جزءاً لا يتجزأ من علم الحديث ،حتى ماجرى عليه علم الحديث بعد ذلك من التدوين فى أواخر عهد الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية .

---

(١) الإتقان للسيوطى ٤/ ٢٠٤ .

مطلب فى : أقسام التفسير وأنواعه :

يختلف الباحثون فى تقسيم التفسير باعتبار اصطلاحاتهم فى هذا التقسيم إذ يعتمد ذلك على قرائحهم ، واجتهاداتهم فى التفريع وتنظيم العلوم على النحو التالى :

(١) تقسيم عبد الرزاق بن همام الحميرى عن ابن عباس- رضى الله عنهما- قال: التفسير أربعة أقسام :

١- قسم تعرفه العرب فى كلامها .

٢- وقسم لا يعُذر أحد بجهالته من الحلال والحرام .

٣- وقسم يعلمه العلماء خاصة .

٤ - وقسم لا يعلمه إلا الله وحده .

قال الزركشى فى البرهان : وهذا تقسيم صحيح[1] .

(٢) تقسيم عام يقول به بعض الباحثين فيقسمه إلى قسمين اثنين هما :

أ- تفسير جاف لا يتجاوز حلَّ الألفاظ ، وإعراب الجمل، وبعض النكات البلاغية .

ب - تفسير هادف غرضه تجلية هدايات القرآن وتعاليمه، وحكمة الله فيما شرع للناس .

(٣) تقسيم ثالثا مشهور علمياً ، وهو ثلاثة أقسام :

أ- تفسير بالرواية ، ويسمى أيضاً : « التفسير بالمأثور».

ب- تفسير بالدراية، ويسمى أيضاً:«التفسير بالرأى»و«التفسير بالاجتهاد».

جـ- تفسير بالإشارة ويسمى أيضاً : « التفسير الإشارى» .

---

(١) البرهان للزركشى ٢/ ١٦٤.

وهذا التقسيم الأخير هو ما يجرى عليه العمل فى الأوساط التعليمية، لأنه أقرب تفريعاً إلى النواحى العلمية المتعلقة بالدراسات الجامعية والمدرسية .

وستتحدث عن كل نوع أو قسم، أو لون من هذه الألوان الثلاثة الأخيرة أيضاً فى مباحث مستقلة إن شاء الله تعالى .

مطلب فى: شروط المفسر، وآدابه

أولا: شروط المفسر:

ينبغى ألا يتصدى للتفسير من لم يُحط بمجمل الشروط التى حددها العلماء لمن يتصدى للبيان عن مراد الله - تعالى - وأهمها :

١ - أن يكون المفسِّر صحيح الاعتقاد بالله تعالى، فإن صحة العقيدة تقى المفسِّر من تحريف النصوص، وخيانة الآيات، والوقاية من الزلل فيها .

٢- التخلى عن الأهواء المذهبية، والتحلى بالحق لوجه الحق دون لىّ أعناق الآيات لمذهب يروج له، أو عقيدة خاصة ينحزف بالقرآن إليها .

٣- ألا يخوض فى التفسير الاجتهادى حتى يتم له النظر والإثبات فى التفسير بالمأثور على النحو التالى :

أ - أن يطلب التفسير من القرآن نفسه، فإن القرآن يشرح بعضه بعضًا فى آيات مختلفة .

ب - ثم إن لم يجد: طلب التفسير من السنّة فإن النبى ﷺ هو المبين الحقيقى عن الله - تعالى - ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(١) .

جـ - ثم إن لم يجد: طلب التفسير فى أقوال الصحابة ، فهم أقرب الناس

(١) النحل : ٤٤ .

-ميعًا إلى رؤية الوحي ، ومعرفة الوقائع ، وأقرب إلى التقوى وسمت النبي ﷺ ،
قرب الأجيال جميعًا إلى الملكة اللغوية التي نزل بها القرآن الكريم .

د- ثم إن لم يجد : اجتهد في تفسير آيات الذكر الحكيم بما حَصَّل من أدوات الضرورية واللازمة لكل مفسر وهي تحصيل العلوم المعينة على التفسير والبيان وأهمها :

١ - العلم باللغة العربية ٢ - العلم بالنحو ٣ - العلم بالاشتقاق

٤ - علم الأبنية. ٥ - علوم البلاغة الثلاثة: المعاني، والبيان ، والبديع

٦ - علم القراءات . ٧ - علم الكلام. ٨ - علم أصول الفقه.

٩ - علم أصول الدين ١٠ - علم السيرة والقصص .

١١ - علم الناسخ والمنسوخ. ١٢ - علم الحديث .

١٣ - علم الموهبة.

ثانياً : آداب المفسّر :

١ - حُسن النية، وسلامة القصد لله تعالى .

٢ - حُسن الخلق ٣ - الورع والتقوى .

٤ - تحري الصدق والضبط في النقل ٥ - عِزَّة النفس.

٦ - التواضع ولين الجانب . ٧ - الجهر بالحق .

٨ - التروي والأناة في سيرْ التفسير .

٩ - حُسن الإعداد وطريقة الأداء .

١٠ - تقديم مَنْ هو في العلم أولى منه .

والله أعلم

مبحث فى الأربعة المكثرون فى التفسير من الصحابة

رأينا أن التفسير، قام فى باكورته الطاهرة الأولى على جهود خمسة عشر صحابياً، شاركتهم أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

فكان لجهود هؤلاء الستة عشر فضل السبق فى خدمة القرآن الكريم، وإرساء المادة العلمية القيمة لعلم التفسير الذى هو الغرض الأول من أنزاله ليكون عقيدة، وتشريعاً، وأخلاقاً وارساءً لدعائم الحضارة الإسلامية .

غير آن ثمة أربعة منهم قامت على أكتافهم مهمة التفسير فى جيلهم، ثم تواصلت مهمتهم الطيبة المشكورة حتى امتدت فيما بعد إلى الأعصار الإسلامية، فيما سنعرفه عند الحديث عن مدارس التفسير فى عصر التابعين، وهؤلاء الأربعة هم: ابن عباس، وابن مسعود، وعلى وأُبَى رضى الله عنهم جميعاً ، وسنوجز الكلام عنهم فيما يأتى :-

(١)

عبد الله بن عباس - رضي الله عنه -

التعريف به :

* هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي، الهاشمي ابن عم رسول الله ﷺ .
* ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات، والنبى ﷺ محصور بالشعب بمكة.
* توفى رسول الله ﷺ وعُمْر ابن عباس ثلاث عشرة سنة وقيل: خمس عشرة سنة
* لازم النبىَّ ﷺ لقرابته منه عليه الصلاة والسلام، ولأن خالته ميمونه أم المؤمنين زوج النبى ﷺ .
* مات- رضي الله عنه - بالطائف ودفن بها سنة (٦٩هـ) وله من العمر سبعون سنة.

علم ابن عباس - رضي الله عنه -

حظى ابن عباس بموهبة علمية فذّة جعلته على درجة عالية من الاجتهاد، ومعرفة تامة بالفقه ومعانى كتاب الله العزيز مما جعل شخصية عظيمة مثل شخصية عمر بن الخطاب الخليفة الثانى - رضي الله عنه - يرفع منزلته عنده ويدنيه منه ويقربه من مجالس كبار الصحابة ومتقدميهم فى السن والمنزلة، حتى أن ابن عباس - رضي الله عنه - يقدم لنا بنفسه هذه الصورة فى بيانه التالى الذى نقله البخارى إلينا .

« كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد فى نفسه، وقال : لِمَ تُدْخِلُ هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر : إنه من أعلمكم فدعاهم ذات يوم، فأدخلنى معهم، فما رأيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم، فقال : ما تقولون فى قول الله تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح﴾ ؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصرنا وفُتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا : فقال لى : أكذلك تقول يابن عباس؟ فقلت: لا . فقال : ما تقول؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعْلَمَهُ الله فقال ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح﴾ وذلك علامة أجلك ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا﴾ فقال عمر : ما أعلم منها إلا ماتقول »[1].

لم يصل ابن عباس إلى هذه المنزلة إلا بشيئين هامين :

الأول : دعاء النبى ﷺ له : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل »[2].

الثانى : دأبه على تحصيل العلم فقد مكث يعقل النبوة والوحى ثمانى سنوات على الأقل فى بيت رسول الله ﷺ عند خالته أم المؤمنين «ميمونة» فنهل من بيت النبوة فى تلك الفترة ما شاء الله له أن ينهل [3].

وبعد أن لحق رسول الله ﷺ بربه انصرف ابن عباس إلى كبار الصحابة يستزيد

---

(١) من صحيح البخارى بحاشية السندى ٣/ ٢٢٢، الإتقان للسيوطى ٤/ ٢٠٦.
(٢) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١/ ١٣٨ .
(٣) التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبى ١/ ٦٨.

من علمهم، ويتزود من معارفهم ، منهم الخلفاء الأربعة، وزيد بن ثابت وأُبيّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود وغيرهم، فأدرك ما فاته فى صغره منهم، ولحقت به دعوة رسول الله ﷺ له : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل» « اللهم آته الحكمة »[1].

*** تقريظ عمر له رضى الله عنهما :**

١ -« إنك لأصبح فتياننا وجهًا، وأحسنهم خُلقًا ، وأفقههم فى دين الله».

٢ - ذاكم فتى الكهول: « إن له لسانًا سئولاً، وقلبًا عقولاً » .

٣ - يابن عباس : « إنها قد طرأت علينا أقضية وعضل، فأنت لها ولأمثالها»[2].

* شهادة عبد الله بن مسعود :

١ -« نعم ترجمان القرآن ابن عباس» .

* شهادة أقرانه : يقول فيه ابن عمر رضى الله عنهما :

١ - « ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد» .

* شهادة تلاميذه [3]:

١ - روى الأعمش عن أبي وائل قال: «استخلف «عليٌّ» عبد الله بن عباس على الموسم فقرأ فى خطبته سورة البقرة- أو قال : سورة النور- ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم، والترك ، والديلم لأسلموا.

٢ - قيل لطاووس: « لزمت هذا الغلام- أى ابن عباس- وتركت أكابر الصحابة! فقال: « إنى رأيت سبعين رجلاً من أصحاب النبى ﷺ إذا تدارءوا- أى

---

(١) الإتقان للسيوطى ٤/ ٢٠٦ .   (٢) التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبى ١/ ٦٧ .
(٣) المرجع السابق .

اختلفوا - فى أمر صاروا إلى قول ابن عباس».

٣- وقال عطاء : « ما رأيت أكرم من مجلس ابن عباس: أصحاب الفقه عنده،وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم من واد واحد».

٤- وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: « كان ابن عباس قد فات الناس بخصال: بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم ونسب، وتأويل، وما رأيت أحدًا كان أعلم بمن سبقه من حديث رسول الله ﷺ منه، ولا بقضاء أبى بكر، وعمر، وعثمان منه، ولا أفقه فى رأى منه، ولا أثقب رأيًا فيما احتيج إليه منه.

ولقد كان يجلس يومًا ولا يذكر فيه إلا الفقه، ويومًا التأويل، ويومًا المغازى، ويومًا الشعر، ويومًا أيام العرب، ولا رأيت عالمًا قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلاً قط سأله إلا وجد عنده علمًا ».

فلا غرابة بعد ذلك أن يكون علم ابن عباس - رضي الله عنهما - فى مقام رفيع بين أصحاب النبى ﷺ ، وأن يلقبه محمد بن الحنفية بـ « حَبْرالأمة» ، بعد أن دفنه بيده فى الطائف قال « مات والله اليوم حَبْر هذه الأمة» .

ولعل أصدق عبارة تشرح منزلة ابن عباس- رضي الله عنهما - فى وضوح لا لبس فيه ولا غموض تلك الجملة الفائقة العظيمة للإمام عليّ- كرم الله وجهه- يقرظ علم ابن عباس فى التفسير فيقول : « كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق» .

منزلة ابن عباس فى التفسير

إنك لتستطيع أن تتبين منزلة ابن عباس فيما أثر عنه من روايات توضح مدى اجتهاده فى تقريب المعنى المراد من كلام الله تعالى بقلب مؤمن، وعقل واعٍ رشيد، وذاكرة حافظة لشعر العرب ولغاتهم .

* أخرج البخارى عن ابن عباس : قال : قال عمر يومًا لأصحاب النبى ﷺ : «فيمن ترون هذه الآية نزلت ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾[1] . قالوا : الله أعلم، فغضب عمر، فقال : قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال

(١) البقرة : ٢٦٦ .

ابن عباس: في نفسي منها شيء، فقال : يا ابن أخي ، قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضُرِبت مثلاً لعمل، فقال عمر : أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل يعمل بطاعة الله ، ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله .

* وأخرج أبو نعيم في «الحلية» (١) : أن عمر بن الخطاب جلس في رهط من المهاجرين من الصحابة، فذكروا ليلة القدر، فتكلم كل بما عنده ، فقال عمر: مالك ياابن عباس لا تتكلم! تكلم ولا تمنعك الحداثة، قال ابن عباس: يا أمير المؤمنين إن الله وتر يحب الوتر، فجعل أيام الدنيا تدور على السبع، وخلق الإنسان من سبع، وخلق فوقنا سماوات سبعًا، وخلق تحتنا أرضين سبعًا وأعطى المثاني سبعًا، ونهى في كتابه عن نكاح الأقربين عن سبع. وقسم الميراث في كتابه على سبع، ونَقَعْ في السجود من أجسامنا على سبع وطاف رسول الله ﷺ بالكعبة سبعًا، وبين الصفا والمروة سبعًا، ورمى الجمار بسبع، فأراها في السبع الأواخر من شهر رمضان، فتعجب عمر ، وقال : ما وافقني فيها أحدٌ إلا هذا الغلام الذى لم تستوِ شئون رأسه، ثم قال : ياهؤلاء من يؤذيني في هذا كابن عباس» (٢) .

* يقول سعيد بن جبير: سألني يهودي بالكوفة وأنا أتجهز للحج: إني أراك رجلاً متتبع العلم، فأخبرني أى الأجلين قضى موسى؟ قلت : لا أعلم ، وأنا الآن قادم على حَبْر العرب- يعني ابن عباس- فسائله عن ذلك ، فلما قدمت مكة سألت ابن عباس عن ذلك، وأخبرته بقول اليهودى ، فقال ابن عباس: قضى أكثرهما وأطيبهما: إن النبي إذا وعد لم يخلف . قال سعيد : فقدمت العراق، فلقيت اليهودى فأخبرته، فقال : « صدق والذى أنزل على موسى» (٣) .

* وعندما يسأل عن عدد أهل الكهف فيقول: (ما يعلمهم إلا قليل) وأنا من القليل الذين يعلمون عددهم، فيقولون: وكيف، فيقول: إن الله تعالى ذكر ثلاثة أقوال لأهل الكتاب في عددهم فوصف القولين الأولين بأنهما رجم بالغيب(أي

---

(١) الإتقان للسيوطى ٤/ ٢٠٦. (٢) الإتقان للسيوطى ٤/ ٢٠٧. (٣) المصدر السابق .

كذب) وسكت عن الثالث وهو أنهم سبعة والثامن كلبهم، فدل على صحته لأنه لو كان باطلاً لرده كما ردهما .

إذًا فلقد عرف كبار الصحابة منزلة ابن عباس وقيمته فى التفسير لآيات الكتاب الحكيم وفى الفتيا رغم حداثة سنه بالنسبة لهم .

وهذا وحده يبين لك أن ابن عباس -رضي الله عنه- هو أساس علم تفسير القرآن الكريم بلا مراء، -رضي الله عنه- وعن أبيه ونفعنا الله بعلمه .

أسباب نبوغ ابن عباس رضى الله عنه :

لعل من أهم الأسباب التى ساعدت على بروز العلم فى شخص ابن عباس رضى الله عنه واحتلاله لمنزلة العالم الذى تتجه إليه الأنظار، وترشحه العقول للفتيا، وبيان آيات الله العزيز ترجع فى مجملها إلى مجموعة من العوامل أهمها:

أولاً: بركة دعاء النبى ﷺ [1] .وتفصيلها بعد الإجمال الذى ذكرناه على النحو التالى :

* اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل.
* اللهم علمه الحكمة.
* اللهم آته الحكمة.
* اللهم بارك فيه وانشر منه.
* أخرج أبو نعيم فى «الحلية» عن ابن عباس قال : انتهيت إلى النبى ﷺ وعنده جبريل، فقال جبريل: إنه كائن حَبْر هذه الأمة فاستوصى به خيراً [2] .
* وأخرج عنه أيضًا أن النبى ﷺ قال لى : نعم ترجمان القرآن أنت .

ثانيًا : نشأته فى بيت النبوة منذ عهد التمييز ووعيه للشئ الكثير فى وقت مبكر من حياته عن حياة النبى ﷺ بين أهله، وشهوده كثيراً من أحوال الوحى وهو ينزل بالقرآن .

---

(١) الإتقان للسيوطى ٤/ ٢٠٥.

(٢) المصدر السابق .

ثالثًا: حرصه الشديد على ملازمة كبار الصحابة للأخذ عنهم ما فاته خاصة الأنصار، يقول ابن عباس - رضي الله عنهما - :« وجدت عامة حديث رسول الله ﷺ عند الأنصار فإني كنت لآتي الرجل فأجده نائمًا، لو شئت أن يوقظ لى لأوقظ، فأجلس على بابه تسفي على وجهى الريح حتى يستيقظ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد ثم أنصرف»[1] .

رابعًا : بلوغه مرتبة الاجتهاد، وعدم تحرجه منه، وشجاعته فى بيان ما يعتقد أنه الحق ، وما ذلك إلا عن علم أوتيه .

خامسًا: عنايته الفائقة، واهتمامه البالغ بلغة القرآن ، يبحث عنها فى ألسنة العرب ولهجاتهم خاصة فى دواوين الشعر القديم ، ويرى أن الشعر هو ديوان العرب وأصل لغتهم، فلا يمنعه مانع من أن يسافر فى سبيل كلمة من كتاب الله تعالى غاب فهم معناها عنه. يقول : « ماكنت أعرف معنى «يحور» فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ [2] حتى كنت فى البادية فسمعت أعرابية تقول لابنتها وقد تركت غنمهما، لماذا تركت الغنم ؟ حوري . أى ارجعي» .

أدوات التفسير عند ابن عباس ومصادره

من هذا العرض السريع تعرف قيمة ابن عباس ومنزلته فى التفسير كما يمكن استخلاص أهم مصادر التفسير عند ابن عباس وأدواته فى النقاط التالية :

١ - رسول الله ﷺ هو المصدر الأول لدى ابن عباس بطبيعة الحال، بحكم التربية والملازمة له فى صغره .

٢- الصحابة - رضوان الله عليهم - خاصة كبارهم والسابقين منهم إلى الإسلام وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة ، وأُبيّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود، ومتقدمو الأنصار.

---

(١) الإتقان للسيوطى ٤/ ٢٠٥ .　　(٢) الانشقاق : ١٤

٣- الملكة العلمية لدى ابن عباس ، والحاسة التفسيرية، التى أدت به إلى النظر والتأمل ثم الاجتهاد وخوض غماره غير هيّاب .

٤- تحصنه بلغة العرب وحفظه لشعرهم ودواوينهم ساعده كل المساعدة وملّكه أهم أداة من أدوات التفسير لكتاب الله العزيز.

حتى أن نافع بن الأزرق قال لنجدة بن عويمر - رضى الله عنهما - قم بنا إلى هذا الذى يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به فقاما إليه فقال : إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين، فقال ابن عباس: سلانى عما بدا لكما:

١- فقال نافع : أخبرنى عن قول الله تعالى : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾[1] .

قال ابن عباس : العزون : الحَلَق الرقاق، قال : وهل تعرف العرب ذلك؟ قال : نعم أما سمعت قول عبيد بن الأبرص .

فجاءوا يُهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

٢- قال أخبرنى عن قوله : ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾[2] قال : الوسيلة : الحاجة. قال : وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم . أما سمعت قول عنترة :

إن الرجال لهم همَم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلى وتخضبى

وقد جمع السيوطى هذه الأسئلة فى حوالى مائة وتسعين سؤالاً من طريق الطبرانى شيئاً ، ومن طريق أبى بكر بن الأنبارى وغيره شيئاً آخر[3] .

---

(١) المعارج : ٣٧ .

(٢) المائدة : ٣٥ .

(٣) الاتقان للسيوطى ٢/ ٥٦ - ٨٠ .

طرق الرواية عن ابن عباس رضى الله عنه :

يعتبر ما أثر عن ابن عباس - رضي الله عنه - فى التفسير، كمًا هائلاً ليس له مثيل عند مفسرى الصحابة ، إذ لا نكاد نجد آية من كتاب الله تعالى ليس لابن عباس فيها تفسير، مما جعل علماء الأثر يقفون موقف الارتياب من هذه المرويات ويتتبعون طرقها بالنقد، وقد لخص الدكتور محمد حسين الذهبى أهم هذه المرويات فيما يأتى باختصار :

١- طريق : معاوية بن صالح، عن على بن أبى طلحة، عن ابن عباس وهذه أجود الطرق عنها .

قال الإمام أحمد - يرحمه الله تعالى : « إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها علىّ بن أبى طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً»[١] .

٢- طريق : قيس بن مسلم الكوفى ، عن عطاء بن السائب، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس.

وهذه الطريقة صحيحة على شرط الشيخين، ويخرج منها الفريابى كثيراً والحاكم فى مستدركه.

٣- طريق : ابن إسحاق - صاحب السير - عن محمد بن أبى محمد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة - أو سعيد بن جبير - عن ابن عباس .

وهى طريقة جيدة وإسنادها حسن، خرج منها ابن جرير، وابن أبى حاتم والطبرانى فى المعجم الكبير.

٤- طريق : إسماعيل بن عبد الرحمن (السُّدى الكبير) تارة عن أبى مالك ،

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ٧٧ - ٨١ (٢) .

وتارة عن أبى صالح عن ابن عباس .

والسُّدى : مختلف فيه، وفيه تشيع لم يخرج منه ابن أبى حاتم وخرج له ابن جرير.

٥- طريق عبد الملك بن جريج، عن ابن عباس.

وهذه الطريقة فيها الصحيح والسقيم، وتحتاج إلى دراية وحنكة فى معرفة الجرح والتعديل لمن يأخذ منها[1].

٦- طريق: الضحاك بن مزاحم الهلالى، عن ابن عباس رضى الله عنه، وهى طريقة منقطعة لأن الضحاك روى عن ابن عباس ولم يلقه، وهى مرضية فى إجمالها، ومن أى طرقها.

٧- طريق: عطية العوفى، عن ابن عباس رضى الله عنه.

وهى غير مرضية أيضًا لضعف عطية، وإن خرج منها ابن جرير، وابن أبى حاتم كثيراً.

٨- طريق: مقاتل بن أبى سليمان الأزدي الخراساني.

وهو الذى قال فيه الشافعى: «الناس عيال على مقاتل فى التفسير».

ومع ذلك ضعفه علماء الفن، وكذبه غير واحد، واشتهرعنه التجسيم والتشبيه.

٩- طريق: محمد بن السائب الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس - رضى الله عنه - وهذه أوهى طرق الرواية عن ابن عباس رضى الله عنه.

وإن كان تفسير ابن السائب أطول وأشيع التفاسير، ويروى عنه محمد ابن

---

(١) الإتقان للسيوطى ٤/ ٢٠٧.

مروان (السُّدى الصغير)، فإذا انضم هذا إلى ابن السائب فإن هذه سلسلة الكذابين.

المطاعن

لم يسلم ابن عباس ـ رضى الله عنه – من نقد اجتهاده لا فى حياته، ولا بعد وفاته؛ أما فى حياته فقد كان عبد الله بن عمر يلوم جرأته فى التفسير، وأما بعد مماته فإن كثيراً من المحدثين سواء كانوا من الغربيين أو المستغربين، ما زلنا نجد لهم نقداً عليه.

وهذا بطبيعة الحال قدر المجتهدين، ونصيب المجدين، وحظ النابهين أما نقد ابن عمر فقد كان نقداً شريفًا عفيفًا طابعه الورع وعدم التقول على الله والخوف على ابن عباس منه، فلما عرف ابن عمر أن ابن عباس لا يتجرأ على التفسير إلا عن علم صدع له بالحق.

يروى أن رجلاً جاء إلى ابن عمر وسأله عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾(١). فقال: «اذهب إلى ابن عباس، ثم تَعالِ أخبرنى: فذهب، فسأله، قال ابن عباس ـ رضى الله عنه: «كانت السموات رتقًا لا تمطر، وكانت الأرض رتقًا لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات».

فرجع الرجل إلى ابن عمر، فأخبره، فقال: «قد كنت أقول: ما يعجبنى جرأة ابن

---

(١) الأنبياء: ٣٠.

عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه أوتي علمًا»[1].

أما نقد غير ابن عمر، فلن نقف عنده طويلاً، ونحيل الطالب إلى مظانه حتى لا يطول الكلام عن المنهج المحدد[2].

(٢)
عبدالله بن مسعود
- رضي الله عنه -

التعريف به:

* هو: عبد الله بن مسعود بن غافل: أبو عبد الرحمن المضرى، الشهير بـ «ابن أم عبد» نسبة إلى أمه: أم عبد بنت عبدود الهذلية.

* كان - رضي الله عنه - قصيراً، نحيفًا ، خفيف اللحم، شديد الأدمة.

* سادس من أسلم، وأول من جهر بالقرآن بمكة وأسمعه قريشًا بعد رسول الله ﷺ .

* كان في خدمة رسول الله ﷺ في أكثر شئونه: فهو صاحب طهوره وسواكه، ونعله، يُلبسه إياه إذا قام، ويخلعه ويحمله في يده إذا جلس، ويمشي أمامه إذا سار، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويلج عليه داره بغير حجاب، حتى ظن من رآه لأول مرة، أنه من أهل بيت رسول الله ﷺ .

* هاجر الهجرتين، وصلى القبلتين، وشهد مع رسول الله ﷺ سائر المشاهد بدراً، وأُحدًا، والخندق، وبيعة الرضوان، كما شهد اليرموك بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وهو الذي أجهز على أبي جهل يوم بدر.

---

(١) الإتقان للسيوطي ٤/ ٢٠٥- ٢٠٦.

(٢) راجع التفسير والمفسرون للذهبي، وراجع لغيره أيضًا.

* شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، وشهد له بالفضل.

أخرج أحمد في مسنده عن عليّ - كرم الله وجهه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كنت مؤمراً أحداً دون مشورة المؤمنين لأمّرت ابن أم عبد».

* ولي بيت مال الكوفة لعمر، وعثمان رضي الله عنهما.

* مات بالمدينة ودفن في البقيع سنة (٣٢هـ) وعمره بضع وستون سنة(١).

منزلته في العلم:

* كان ابن مسعود - رضي الله عنه - من أحفظ الصحابة لكتاب الله تعالى.

* وكان رسول الله ﷺ يحب أن يسمع القرآن منه.

يقول ابن مسعود: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ سورة النساء» قال: قلت أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: إني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأت عليه، حتى بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾(٢). فاضت عيناه ﷺ.

* كان ابن مسعود يعرف لنفسه حقها، ويعتز بعلمه حتى إنه كان يرى أنه أحق من زيد بن ثابت في نسخ المصاحف في عهد عثمان وأنه أولى بالقيام بهذا الشأن منه وله في ذلك تلك الصيحة المجلجلة في الناس: «يا معشر المسلمين.. أعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر»؟!

يريد زيد بن ثابت.

* قيل لحذيفة أخبرنا برجل قريب السمت، والدلّ، والهدى من رسول الله ﷺ،

---

(١) بتصرف عن: التفسير والمفسرون للدكتور/ محمد حسين الذهبي ١/ ٨٣ - ٨٨.
(٢) النساء: ٤١.

نأخذ عنه، فقال: «لا نعلم أحداً أقرب سمتًا ولا هديًا برسول الله ﷺ من ابن أم عبد، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة»(1).

※ كتب أمير المؤمنين عمر كتاباً إلى أهل الكوفة يقول لهم فيه: «إني قد بعثت عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر فاقتدوا بهما، وأطيعوا واسمعوا قولهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي».

※ وقال مسروق رضي الله عنه: «انتهى علم أصحاب رسول الله ﷺ إلى ستة: عمر، وعليّ، وعبد الله بن مسعود، وأُبيّ بن كعب، وأبي الدرداء، وزيد بن ثابت، ثم انتهى علم هؤلاء الستة إلى رجلين: عليّ، وعبد الله»(2).

※ لّما دخل عليّ الكوفة حضر عنده ناس من أهلها، وذكروا بين يديه عبد الله بن مسعود وقالوا: «يا أمير المؤمنين ما رأينا رجلاً أحسن خلقًا، ولا أرفق تعليماً، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعاً من ابن مسعود»، قال عليّ: أنشدكم الله، أو الصدق من قلوبكم؟ قالوا: نعم. قال: اللهم أشهد أني أقول مثل ما قالوا وأفضل»(3).

※ أقام ابن مسعود في الكوفة ما يشاء الله له أن يقيم يعلّم أهلها الحديث، والتفسير، والفقه، وأسس في الكوفة علم أهل الرأي حيث كان لا يتردد في أن يبدي رأيه في الوقائع النازلة عندما لا يجد نصاً بين يديه، ولقد نشأت مدرسة الرأي على يديه وامتدت حتى ذاع صيتها في منتصف القرن الثاني الهجري على

---

(1) أسد الغابة لابن الأثير ٣/ ٢٥٨.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق.

يد أبي حنيفة وأصحابه ويعد عبد الله بن مسعود أساس هذا المذهب.

منزلة ابن مسعود فى التفسير:

* تظهر منزلة ابن مسعود التفسيرية فى تقديمه لنفسه، وفى ثناء أصحاب رسول الله ﷺ على مكانته ومنزلته فى العلم، وفى تقديم هذه الشهادات سواء كانت على لسان ابن مسعود نفسه باعتباره كلامًا حقيقيًا بعيدًا عن الفخر والخيلاء، أو كانت على لسان بعض أصحاب رسول الله ﷺ.

أ - يقول ابن مسعود - رضى الله عنه - عن نفسه لما بلغه تحريق عثمان - رضى الله عنه - للمصاحف: « لقد علم أصحاب محمد أنى أعلمهم بكتاب الله - وما أنا بخيرهم - ولو أنى أعلم أن أحدًا أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لأتيته».

قال أبو وائل: «فقمت إلى الحلق أسمع ما يقولون، فما سمعت أحدًا من أصحاب محمد ينكر ذلك عليه».

* ويقول ابن مسعود - رضى الله عنه: «أخذت من فىّ رسول الله ﷺ سبعين سورة». ويقول: «والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته»(1).

هذه شهادة ابن مسعود على نفسه وهى شهادة ما قصد بها التباهى والتعالى، وإنما قصد بها البيان، والإيضاح أن ما عنده من علم رسول الله ﷺ أحق وأسرع أن يحمل عنه، حتى لا يضيع بذهابه.

ب - أما شهادة أصحاب رسول الله ﷺ، وتلاميذه فمنها:

---

(1) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٤/ ٢٠٤.

※ روى أبو نعيم فى «حلية العلماء» عن أبى البحترى قال: قالوا لعلىّ أخبرنا عن ابن مسعود، قال: «عِلمُ القرآن والسنّة ثمّ انتهى، وكفى بذلك علمًا»[1] .

※ وقال عقبة بن عامر ـ رضى الله عنه: «ما أدرى أحدًا أعلم منه بما نزل على محمد بن عبد الله، فقال أبو موسى: إن تَقُل ذلك، فإنه كان يسمع حين لا نسمع، ويدخل حين لا ندخل».

※ وقال تلميذه مسروق: «كان عبد الله يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها، ويفسرها عامة النّهار».

مرويات ابن مسعود ومبلغها من الصحة[2] :

إن الحكم على مرويات ابن مسعود بالصحة والسلامة، أو بالضعف والسقم ليس بالنظر إلى ابن مسعود نفسه، وإنما بالنظر إلى من روى عنه بطبيعة الحال. ولقد حصر الدكتور/ محمد حسين الذهبى مرويات ابن مسعود فى خمسة طرق سلم منها أربعة طرق كاملة، فكان حظه فى تلاميذه، ونقلة علمه أكثر من ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ وقد سبق أن عرفنا أن مرويات ابن عباس لا يكاد يسلم منها أكثر من طريقين، والضعف فى أكثر مرويات ابن عباس فى التفسير كانت فى نقلة علمه كما عرفت.

ونقدم بين يديك طرق الرواية عن ابن مسعود فيما يأتى:

١ ـ طريق الأعمش، عن أبى الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود.

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٤/ ٢٠٥.

(٢) عن التفسير والمفسرون للدكتور الذهبى ١/ ٨٧ بتصرف.

٢ ـ طريق مجاهد، عن أبي معمر، عن ابن مسعود.

٣ ـ طريق الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود.

٤ ـ طريق السُّدِّي الكبير، عن مرة الهمداني، عن ابن مسعود.

٥ ـ طريق أبي روق عن الضحاك، عن ابن مسعود.

أما الطرق الثلاثة الأولى فقد اعتمدها البخاري في صحيحه.

وأما طريق السُّدِّي الكبير (إسماعيل بن عبد الرحمن) فحديثه عند مسلم وأصحاب السنن الأربعة، وقد جمع من الأئمة فيهم: شعبة، الثوري[1].

وأما الطريق الخامس: عن الضحاك، عن ابن مسعود، فقد حكم عليه العلماء بالانقطاع لأن الضحاك لم يلق ابن مسعود يرحمهما الله تعالى.

وهكذا بعد أن قدمنا بين يديك ثاني أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ ممن عُلِّمُوا الكتاب والحكمة، وعكفوا على تفسير آيات الله، وكانوا أقرب إلى تأدية مراد الله تعالى ممن جاء بعدهم، فنهلت الأجيال من فيض معينهم، وغزير ما أعطوا من فقه الوحي فبنوا هذا العلم ـ علم التفسير ـ وأقاموه على أعمدة صحيحة راسخة، أشهر بناتها ابن مسعود فحق لنا أن نحفر اسمه في ذاكرتنا وذاكرة التاريخ لعلم التفسير، وأن نقول بحق ما قاله المغبطون لعلمه وقربه من المعصوم ـ صلوات الله وسلامه عليه: «كان يسمع حين لا نسمع، ويدخل حين لا ندخل».

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ٨٨ بتصرف.

(٣)
علىّ بن أبى طالب
« كرّم الله وجهه »

مكانته فى العلم بصفة عامة:

لا يستطيع أحدٌ أن ينكر على آخر الراشدين علىّ بن أبى طالب، ابن عمّ رسول الله ﷺ، وصهره، وأول من أسلم من الأحداث، وشهد المشاهد كلها، ومن آخاه رسول الله ﷺ فى الدنيا والآخرة. لا أحد ينكر سعة علمه، وقوة حجته، وسلامة استنباطه، ونضج عقله، ورجاحة قضائه. فكما كان ابن عباس - رضى الله عنه - مرجع الصحابة فى التفسير، كان علىّ - كرم الله وجهه - مرجعهم فى القضايا المعضلة.

وكما كان تفسير ابن عباس بركة دعوة رسول رب العالمين، كان «قضاء علىّ» وهَدى قلبه فيه دعوة رسول رب العالمين كذلك. قال النبى ﷺ فيه: «اللهم ثبت لسانه، واهدِ قلبه». «أنت أخى فى الدنيا والآخرة». «لأعطيّن الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يحب اللهَ ورسوله، ويحبه اللهُ ورسوله. ثم أعطاها عليًا». وولاّه رسول الله ﷺ قضاء اليمن، فأوفى وأجاد، ورجع إليه الصحابة فى معضلات أمور القضاء حتى صار يضرب به المثل فيقال: «قضيةٌ ولا أبا حسن لها»[١] .

مكانته فى التفسير بصفة خاصة:

قدمنا أن مفسرى الصحابة كانوا لا يزيدون على ستة عشر صحابيًا من بينهم أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - وأن المشهورين منهم عشرة، والمكثرون من العشرة أربعة.

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٤/ ٢٨ بتصرف.

فاعلم أن عليًا ـ كرم الله وجهه ـ ثالث الأربعة فى ترتيب المكثرين. وقد جمع ـ كرم الله وجهه ـ إلى جانب مهارتى القضاء والفتيا العلم بالقرآن بشهادته عن نفسه، وشهادة علماء الصحابة ـ خاصة المفسرين منهم ـ عنه. أما شهادته عن نفسه فيقول: «سلونى، فوالله لا تسألوننى عن شيء إلا أخبرتكم، وسلونى عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم: أبليل نزلت أم بنهار، أم فى سهل أم فى جبل».

وأخرج أبو نعيم فى «الحلية» عنه: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت، وأين نزلت، وإن ربى وهب لى قلبًا عقولاً، ولسانًا سئولاً»[1].

وأما شهادة علماء الصحابة له: قال فيه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وإن علىّ بن أبى طالب عنده منه الظاهر والباطن»[2].

مرويات علىّ ـ كرم الله وجهه ـ ومدى صحتها:

لو أننا نظرنا بمنظار غير منظار التثبت من العلم لوضعنا «عليًا» ـ كرم الله وجهه ـ قبل ابن عباس فى كثرة ما روى عنهما من تفسير. فقد بلغ ما روى عن علىّ ـ كرم الله وجهه ـ حدًا من الكثرة لا تليق بوضعه فى المرتبة الثالثة بين المكثرين، ولكن النظرة الموضوعية العلمية التى جعلت الباحثين يضعون الإمام عليًا فى المرتبة الثالثة هى النظر فقط إلى ما صَحَّ من الروايات عنه، وإلا فإن المغالين الذين أسرفوا فى حبهم له، هم السبب فى اختلاق أكثر الروايات التى نسبت إليه فى التفسير مما جعل القيمة العلمية لهذه الروايات لا ترتقى إلى مرتبة الوثوق بها.

ولذلك يقول الدكتور محمد حسين الذهبى: «لم يعتمد أصحاب الصحيح فيما

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ٨٩ ـ ٩١.

(٢) المصدر السابق.

يروونه عنه إلا على ما كان من طرق الإثبات من أهل بيته، أو من أصحاب ابن مسعود، كعبيدة السلماني، وشريح وغيرهما .

وأهم هذه الطرق هي :

١ ـ طريق: هشام، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة السلماني، عن عليّ ـ كرم الله وجهه ـ طريق صحيح يخرج منه البخاري وغيره.

٢ ـ طريق: ابن أبي الحسين، عن أبي الطفيل، عن عليّ ـ كرم الله وجهه ـ وهذا الطريق غالب ما عند سفيان بن عيينة في تفسيره، وهو صحيح أيضًا.

٣ ـ طريق الزهري، عن علي زين العابدين، عن أبيه الحسين، عن جده عليّ. وهذه أصح الطرق، بل عَدّها البعض أصح الأسانيد مطلقًا .

(٤)
أبيّ بن كعب
ـ رضي الله عنه ـ

تعريفه: هو أُبيّ بن كعب بن قيس الأنصاري، الخزرجي. كناه النبي ﷺ بـ «أبي المنذر» وكناه عمر ـ رضي الله عنه ـ بـ «أبي الطفيل» أحد السابقين من بني النجار إلى الإسلام، المسارعين لقبوله: قَبِله الله ورضي عنه، وتقبل منه. شهد بدرًا والعقبة. أول من كتب لرسول الله ﷺ مقدمة المدينة. مات في خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ وعنه. قال فيه عمر: «أُبيٌّ سيِّد المسلمين».

مكانته في العلم بصفة عامة:

كان ـ رضي الله عنه ـ أحد كُتَّاب الوحي، وأحد الحفاظ لكتاب الله العزيز،

وأحد المشهورين من القرَّاء في الإسلام. سماه الله لنبيِّه وطلبَ من نبيِّه ﷺ أن يقرأ عليه القرآن.

فقد أخرج الترمذي عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «إن النبي ﷺ قال لأبيّ بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لم يكن الذين كفروا﴾. قال أُبيّ: آلله سماني لك؟ قال: نعم، فجعل أُبيّ يبكي. فقيل له: وفرحت بذلك؟ قال: وما يمنعني وهو القائل ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾[1].

ونقل ابن الأثير من رواية الشعبي عن مسروق قال: «كان أصحاب القضاء من أصحاب رسول الله ﷺ ستة: عمر، عليّ، عبد الله، أُبيّ، زيد، وأبو موسى»[2].

مكانة أبيّ ـ رضي الله عنه ـ في التفسير خاصة:

سبق أن علمت في ما قدمناه أن أُبيّ بن كعب أنه رابع الأربعة المكثرين من صحابة رسول الله ﷺ، ولا غرابة في ذلك، فهو كاتب الوحي بيده، وأكثر الصحابة علمًا بجودة قراءته، ومن الحفظة المعدودين. وهذه الأدوات الهامة جعلته أهلاً للعلم بالتفسير وروايته. وأخذ التفسير على يديه جمهرة من الصحابة من أمثال ابن عباس، وابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ كما أنه يعتبر مرجعًا هامًا للصحابة .. لذلك فإن ما يصل إلى يديك من تفسير أُبيّ إذا صحت الرواية عنه له قيمة علمية على جانب عظيم من الأهمية.

أشهر طرق الرواية عنه:

١ ـ طريق: أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبيّ ـ

---

(١) التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي ١/ ٩١ بتصرف.

رضى الله عنه. وهذا طريق صحيح، أخرج ابن جرير، وابن أبى حاتم، والحاكم، والإمام أحمد عنه الكثير[1] .

٢ ـ طريق: وكيع، عن سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أُبيّ بن كعب عن أبيه. وهذا الطريق على شرط الحسن، يخرج منه الإمام أحمد فى مسنده. وإن كان فيه عبد الله بن محمد بن عقيل، صدوق تكلم فيه البعض.

مطلب فى: قيمة التفسير المأثور عن الصحابة رضى الله عنهم

لا شك أن الصحابة العشرة الذين اشتهروا بتفسير القرآن الكريم هم الذين أرسوا قواعد علم التفسير، وأقاموا دعائمه باعتبار أنهم المصدر الأول الذى شاهد الوحى، وعاصر التنزيل، هم بهذا أصل هذا العلم وحملته، وكلامهم فيه مرده إلى المعصوم ﷺ.

وعلى هذا الأساس فقد اهتم العلماء اهتمامًا كبيراً «بمأثورات» الصحابة المفسرين خاصة المكثرين منهم فى الرواية عن النبى ﷺ، أو باجتهادهم باعتبار أن من عنى منهم بتفسير القرآن الكريم هم مَنْ اهتموا بجمعه، وحفظه، ومعرفة أسباب نزوله، وناسخه ومنسوخه، وحلاله وحرامه وأوجه قراءاته ممن تناولناهم بالدراسة السابقة وهم: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعلى بن أبى طالب، وأُبيّ بن كعب ـ رضى الله عنهم جميعًا.

ونظرًا إلى أن تفسير هؤلاء الأئمة الكبار منه ما يعود إلى أسباب النزول ومنه ما يعود إلى اجتهاد مفسرى الصحابة لذلك نرى أن العلماء انقسمت نظرتهم إلى قيمة التفسير المنقول عن الصحابة على ما يأتى:

١ ـ يرى الحاكم النيسابورى أن تفسير الصحابى الذى شاهد الوحى، وعاصر التنزيل له حكم الحديث المرفوع إلى النبى ﷺ، وهو بهذا ينقل عن البخارى ومسلم ما ذكراه.

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ١/ ٥٠ .

يقول الحاكم: «ليعلم طالب الحديث أن تفسير الصحابي الذي شاهد الوحي والتنزيل - عند الشيخين - حديث مسند»[1].

أما اعتبار الحاكم بأن تفسير الصحابي له حكم الحديث المرفوع فهو اعتبار «مطلق وعام». إذ لا يخلو تفسير الصحابي من الاجتهاد برأيه - وإن قل - في زمانهم، لكنه كان موجوداً وبارزاً خاصة في ما نقله الرواة من تفسير ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما.

ولهذا نرى ابن الصلاح صاحب المقدمة المشهورة في علم الحديث يقيد هذا العموم والإطلاق بما إذا كان المأثور عن الصحابة متعلقًا بسبب نزول، أو برواية يسندها الصحابي إلى المعصوم ﷺ.

يقول ابن الصلاح: «ما قيل من أن تفسير الصحابي حديث مسند، فإنما ذلك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية يخبر به الصحابي، أو نحو ذلك لا يمكن أن يؤخذ إلا عن النبي ،، ولا مدخل للرأي فيه كقول جابر - رضي الله عنه: كانت اليهود تقول: من أتى امرأته من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله - عز وجل - ﴿نساؤكم حرث لكم﴾[2] فأما سائر تفاسير الصحابة التي لا تشتمل على إضافة شيء إلى الرسول ﷺ فمعدودة في الموقوفات[3] ومن هنا نرى أن تفسير الصحابي نوعان:

١ - نوع موقوف على الصحابي، وهو ما يتعلق باجتهاده في تفسير النص القرآني.

٢ - ونوع مرفوع إلى النبي ﷺ يسنده الصحابي، أو له حكم المرفوع كذكر سبب النزول.

---

(١) تدريب الراوي للسيوطي ص ٦٤. (٢) البقرة: ٢٢٣. (٣) تدريب الراوي ص ٦٤.

أما النوع الأول: فقد اختلف العلماء في حكم الأخذ به، والرجوع إليه وعدم العدول عنه إلى غيره إلى رأيين:

أ ـ ذهب فريق إلى أن الموقوف على الصحابي لا يجب الأخذ به، ويمكن العدول عنه إلى رأي مجتهد آخر، لأن الصحابي في قوله الخاص غير المسند إلى رسول الله ﷺ مجتهد كسائر المجتهدين فلنا أن نأخذ به، أو بقول مجتهد آخر غيره، لأن كليهما يخطيء ويصيب .

ب ـ وذهب آخرون إلى أن «موقوف الصحابي» لا يعدل عنه إلى غيره، ويجب الأخذ به لظن سماعهم له من رسول الله ﷺ، ولأنهم حتى وإن فسروا القرآن بآرائهم واجتهاداتهم الشخصية فآراؤهم أقرب إلى الصواب ممن بعدهم، فهم أدرى الناس وأعلم بكتاب الله ـ تعالى ـ باعتبارات كثيرة منها أنهم: أهل اللسان، وصحبتهم لرسول الله ﷺ وتخلقهم بأخلاقه، ولما لهم من العلم الصحيح والفهم الدقيق لا سيما علماؤهم وقراؤهم، ومنها أنهم شاهدوا نزول القرآن ووعوا أسبابه فيم نزل، وفي أي شيء، ومتى.

حتى قال السيوطي في الإتقان: «اعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل، وقسم لم يرد.

والأول: إما أن يرد عن النبيّ ﷺ، أو الصحابة، أو رءوس التابعين. فالأول: يبحث فيه عن صحة السند، والثاني: ينظر في تفسير الصحابي، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتماده، أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه»[1] .

ولقد وضّح العلامة ابن كثير في مقدمة «تفسير القرآن العظيم» هذا المعنى

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ١٨٣ .

بجلاء ووضح وبين أهمية تفسير الصحابي، وقيمته العلمية فقال وهو يعدد أوليات هذه الأهمية:

من حيث ترتيب مصادر هذه الأقوال: «إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم».

وأما النوع الثاني: فمجمع على وجوب الأخذ به وعدم العدول عنه إلى اجتهاد من بعده.

مطلب في :خصائص تفسير الصحابة، ومميزاته

١ ـ لم يكن التفسير في هذا العهد تفسيراً مكتوبًا، ولا مدونًا، وإنما كان شأنه شأن علم الحديث. والسبب في ذلك أن الأمة كلها في هذه الفترة اعتمدت على نقل علمها رواية ومشافهة، لا تدوينًا ولا كتابة لوجود النهي الصارم عن تدوين غير القرآن خوف إلباسه بما ليس منه لقوله ﷺ: «لا تكتبوا عني شيئًا ومن كتب عني غير القرآن فليمحه» اللهم إلا ما كان ينقله البعض من الحفاظ والمفسرين على هوامش مصاحفهم من أوجه القرآن ولغاته فظنها المتأخرون عنهم أنها من تفاسيرهم.

٢ ـ لم يأخذ التفسير شكلاً منتظمًا يتماشى مع ترتيب السور، أو حتى ترتيب آيات السورة الواحدة.

٣ ـ لم يستقص أي مفسر من كبار مفسري الصحابة ومكثريهم جميع آيات القرآن الكريم، وإنما فسروا فقط ما غمض فهمه على الناس، أوما عرفوا له أسبابًا

للنزول، أو ما كان جوابًا نزل به الوحى لسؤال سائل.

٤ ـ اتفاق جيلهم على الفهم العام لمعظم آيات القرآن باعتبار معايشتهم لنزوله، وعدم اختلاف مفسريهم إلا فى النادر القليل.

٥ ـ قلة الاستنباط الفقهى لقلة الحوادث والواقعات والمستجدات.

٦ ـ الاقتصار على التفسير لغريب الألفاظ التى كانت تغيب على معرفة البعض منهم لكونه على لغات قبيلة دون أخرى مثلاً.

تلكم هى المرحلة الأساسية فى بيان مراد كلام الله ـ تعالى ـ وهى مرحلة كريمة لها طابع نورانى لم تَشُبْهَا شوائب عقلية، ولا إحن مذهبية.. لك أن تسميها باسم المرحلة الأولى فى التفسير، ولك أن تسميها باسم الصحابة رضوان الله عليهم... المهم عندنا أن مصدرها نبع صاف.. ومورها صاحب كريم.

مبحث فى: التفسير فى عصر التابعين ومدارسه

تمهيد: بدأت الفتوحات الإسلامية فى أواخر عهد النبى ﷺ، ثم بدأت تتسع شرقًا، وشمالاً، وغربًا، حتى أتت على مملكة كسرى، والروم، ومصر، وما لبث الجهاد أن حمل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إلى كل هذه البلدان واستقر العديد منهم فيها، والتف الناس حولهم متشوقين إلى هؤلاء النفر الكرام البررة الذين رأوا النبىّ ﷺ، وعاصروا الوحى، ونالوا شرف القتال فى الغزوات الكبرى.

ومع ذلك فقد تفرغ منهم للعلم فى موطن الوحى عبد الله بن عباس فى مكة، وأُبىّ بن كعب فى المدينة فلم يشأ كل منهما أن يغادر موطنه الذى ولد فيه فنشأت على أكتافهما مدارس التفسير فى الحرمين الشريفين. بينما استقر علىّ ومن قبله ابن مسعود فى العراق فقامت بهما مدارس التفسير فيه.

مطلب تمهيدى فى: مدارس التفسير فى عصر التابعين

وبذلك شاءت إرادة الله - سبحانه وتعالى - إلا أن تقوم على عاتق المشاهير الأربعة أهم مدارس التفسير، وأن يكون حظ التابعين من علمهم الحظ الموفور، وأن تمتد بهم فى أشخاص تلاميذهم السمة الأساسية لتفسير كتاب الله العزيز.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كلمة «مدرسة هنا» لا تعنى بناء خاصًا لتلقى علم التفسير كما هو الحال فى زماننا، ولكنه تعبير تجاوزى عن بداية الاستقرار لتلقى العلم فى مكان ما.. ليكن المسجد، وليكن السؤال فى الطريق العام من التلميذ للأستاذ أيًا ما كان فقد أصبح لابن عباس تلاميذه من التابعين فى مكة.

وكذلك لأبىّ تلاميذه من التابعن فى المدينة، ولعلىّ وابن مسعود تلاميذهما فى العراق.

ولنلق ضوءاً بسيطًا على كل مدرسة وأشهر تلاميذها باختصار شديد.

١. المدرسة المكية فى التفسير وأشهر تلاميذها:

شيخها: عبد الله بن عباس - رضى الله عنه - وقد سبق لك أن عرفت قيمته ومنزلته العلمية، وأدواته ومصادره فى التفسير.

تلاميذها : وقد أخذ عن ابن عباس علمه فى مكة ثُلّة من التابعين أشهرهم:

١ - سعيد بن جبير بن هشام الأسدى: أبو محمد، حبشى الأصل، أسود اللون، أبيض الخصال، أخذ عن ابن عباس - رضى الله عنهما - القراءة والتفسير، وهو ثقة حجة.

٢ - مجاهد بن جبير: أبو الحجاج المخزومى، أوثق تلاميذ ابن عباس - رضى الله عنهما - من القراء المشهورين، توفى بمكة سنة ١٠٤هـ وهو ساجد.

٣ ـ عكرمة (مولى ابن عباس) أبو عبد الله البربري المدني، أصله من البربر بالمغرب. كان جريئًا على العلم، ولذلك توقف بعض العلماء عن توثيقه، ومع ذلك فعكرمة ـ يرحمه الله ـ لم يثبت عليه شيء يلام عليه، وقد فند مطاعن الطاعنين عليه الشيخ محمد حسين الذهبي فلتراجعه هناك[1] . وتوفي ـ رحمه الله ـ سنة ١٠٤ هـ.

٤ ـ طاووس بن كيسان اليماني الحميري. أبو عبد الرحمن. كان على جانب عظيم من الورع والتقوى حتى صار شيخ اليمن، جالس أكثر من خمسين صحابيًا، وكان خبيرًا متقنًا لمعاني كتاب الله تعالى، توفي سنة ١٠٦هـ بمكة المكرمة أثناء حجه إليها من اليمن.

٥ ـ عطاء بن أبي رباح المكيّ القرشي: أبو محمد، توفي سنة ١١٤هـ. كان من سادات التابعين فقهًا وعلمًا، وورعًا، وفضلاً زينّه الله بالعلم ونوّره بالورع، وأفاض عليه من نوره مع أنه كان ـ يرحمه الله ـ أسود، أعور، أفطس، أشل، أعرج، ثم عمي بعد ذلك، فأنّا يدانيه منّا أحد؟

٢. المدرسة المدنية في التفسير، وأشهر تلاميذها:

شيخها: أُبيّ بن كعب بن قيس الأنصاري من السابقين للإسلام من بني النجار، ومن السابقين في خدمة رسول الله ﷺ وخدمة القرآن، كتابة، وحفظًا، وعلمًا بقراءاته.

تلاميذها: حمل علم أُبيّ ـ رضي الله عنه ـ في المدينة أناس كثيرون من التابعين كان من أشهرهم:

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١١٠.

١ ـ أبو العالية: رفيع بن مهران الرياحي. أدرك الجاهلية، وأسلمَ بعد وفاة النبي ﷺ بسنتين وهو من ثقات التابعين المشهورين في التفسير، ونسخة كبيرة من تفسير أُبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ يرويها أبو العالية، وأخرج منها الأئمة في تفاسيرهم، مات ـ يرحمه الله تعالى ـ سنة ٩٠هـ.

٢ ـ محمد بن كعب بن سليم القرظي، المدني: أبو حمزة من حلفاء الأوس. روايته عن أُبيّ بن كعب بالواسطة، لكنه اشتهر بالثقة، والعدالة، والورع وكان من أفاضل أهل المدينة علمًا بالقرآن، توفي سنة ١١٨هـ.

٢ ـ زيد بن أسلم العدوي المدني: أبو أسامة. اشتهر عنه التفسير بالرأي دون تحرج، ولكنه كان ثقة، لم ينسبه أحد إلى مذهب من المذاهب المبتدعة، وكان من أشهر مَنْ تلقى علم زيد بن أسلم: مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وابنه عبد الرحمن بن زيد، توفي ـ يرحمه الله تعالى ـ سنة ١٣٦هـ تقريبًا.

٣. المدرسة العراقية وأشهر تلاميذها:

شيخها: عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه. والواقع: أن عليًا ـ كرم الله وجهه ـ وكذلك كثير من الصحابة يعدون من شيوخ هذه المدرسة حيث تلقى أهل العراق العلم عنهم جميعًا. غير أن أحدًا منهم لا ينازع عبد الله بن مسعود في مشيخة هذه المدرسة لاعتبارات أهمها:

١ ـ شهرة ابن مسعود في القراءات والتفسير.

٢ ـ تعيينه رسميًا من قبل الخليفة الثاني عمر ـ رضي الله عنه ـ ليكون معلم أهل الكوفة ووزير أميرها عمار بن ياسر مما جعل الكوفيين يجلسون إليه ويأخذون عنه أكثر من غيره من الصحابة ـ رضوان الله عليهم. حتى أن العلماء يقولون بأن ابن مسعود هو الذي أسس «الرأي» في مسائل الخلاف وهو الذي وضع الأساس لهذه

الطريقة في الاستدلال، والتي اشتهر بها أهل العراق فيما بعد. ومن المرجح أن تؤثر هذه الطريقة في ظهور تفسير القرآن الكريم بالاجتهاد والرأي خاصة في استنباط المسائل الشرعية للواقعات المستجدة في عصورهم كنتيجة طبيعية من نتائج إعمال الرأي في فهم النصوص الشرعية من القرآن والسنة.

تلاميذها: تتلمذ على ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عدد كبير من التابعين ـ من أهل العراق فحملوا عنه علمًا كثيرًا، كان من أشهرهم:

١ ـ علقمة بن قيس بن عبد الله النخعي الكوفي. أشهر من روى عن ابن مسعود، وأعلمهم بعلمه على الإطلاق، كان ثقة، مأمونًا، حتى قال فيه مرة الهمداني: «كان علقمة من الربانيين». مات وعمره تسعون سنة في «٦١هـ».

٢ ـ مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الكوفي: أبو عائشة. قيل: سُمِّيَ مسروق، لأنه سُرِقَ في صغره ثم وُجِد. كان من أعلم تلاميذ ابن مسعود، وكان شريح القاضي يستشيره في معضلات المسائل، امتاز بورعه، وعلمه، وعدالته، وكانت وفاته سنة «٦٣هـ».

٣ ـ الأسود بن يزيد بن قيس النخعي: أبو عبد الرحمن، المتوفى سنة «٧٤هـ» بالكوفة. كان من كبار التابعين، وثقاتهم، على جانب عظيم من فهم كتاب الله وكان من صُوَّام الدهر معدود في أصحاب ابن مسعود بالافتاء.

٤ ـ مُرَّة بن شراحيل الهمداني، الكوفي العابد، الملقب بـ «مرة الخير». و «مرة الطيب» لكثرة صلاحه، وشدة روعه. سجد «مرة» حتى أكل التراب وجهه، وكان يصلي كل يومٍ ستمائة ركعة. توفي سنة «٧٦هـ»[1].

---

(١) تهذيب التهذيب ١٠/ ٨٨-٨٩.

٥ ـ عامر الشعبي: عامر بن شراحيل الشعبي، الحميري، الكوفي، التابعي الجليل، قاضي الكوفة، سمع من ثمانية وأربعين صحابيًا. يقول عنه ابن سيرين: «قدمت الكوفة وللشعبي حلقة، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ كثير». كان فقيهًا، شاعرًا، ثقة، وكان يقال عنه: «ابن عباس في زمانه».

٦ ـ الحسن البصري: الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، مولى الأنصار كان غزير العلم بكتاب الله، جامعًا، عالمًا، فقيهًا، ثقة، مأمونًا، قال فيه أبو جعفر الباقر: «ذلك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء[١] .

٧ ـ قتادة بن دعامة السدوسي: أبو الخطاب الأكمه، عربي الأصل، سكن البر. كان واسع الاطلاع في الشعر العربي، بصيرًا بأيام العرب، عليمًا بأنسابهم وكان ثقة، مأمونًا، وكان من علماء الناس بالقرآن والفقه، ومن حفاظ زمانه.

مطلب في: قيمة التفسير المأثور عن التابعين

اختلف علماء الأمة في قبول «رأي» التابعي في التفسير، ومدى الالتزام به، إذا كان هذا قولاً مستقلاً له موقوفًا عليه غير مسند إلى صحابي، أو غير مرفوع إلى النبيّ ﷺ. وهم في ذلك على رأيين:

الأول: أن قول التابعي ورأيه الشخصي في التفسير، هو كقول آحاد الناس غير مُلزم بقبوله وللأمة أن تأخذ به أو تأخذ برأي مجتهد سواه في عصره أو بعد عصره وذلك للأسباب الآتية:

١ ـ أن التابعي (في رأيه الشخصي) ليس له سماع من النبيّ ﷺ، ولا من الصحابي حتى تلتزم الأمة رأيه.

---

(١) تهذيب التهذيب ١٠/ ٨٨-٨٩.

٢ - أن التابعي (في رأيه الشخصي) شأنه شأن غيره من جيله ومن بعده لم يَرث القرائن التي نزل عليها الوحي، فيجوز عليه الخطأ - كما يجوز على غيره - في فهم المراد، وظن ما ليس بدليل دليلاً.

٣ - أن التابعي لم تُنصّ على عدالته. كما نُص عليها بالنسبة للصحابة.

٤ - أن جميع مجتهدي الأمة (من التابعين وأتباعهم) نصُّوا على ذلك، ولكل من الأئمة الأربعة مقالة مشهورة عنه تصلح كدليل لهذا الرأي.

أ - يقول أبو حنيفة - يرحمه الله تعالى: «ما جاء عن النبيّ ﷺ فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيرنا. وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال».

ب - ويقول مالك - يرحمه الله تعالى: «كل منا يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر» مشيراً إلى قبر النبي ﷺ.

جـ - ويقول الشافعي - يرحمه الله تعالى: «إذا رأيت قولي يخالف قول رسول الله ﷺ فاضرب بقولي عرض الحائط».

د - ويقول أحمد بن حنبل - يرحمه الله تعالى: «إذا صح الحديث فهو مذهبي» فقد قال هؤلاء الأئمة كلمة الفصل في هذه المسألة وهي أن قول التابعي «الخاص» غير واجب الأخذ به في ما يفسره من آيات الله تعالى. وشأنه في ذلك شأن غيره من المفسرين.

الثاني: أن قول التابعي «الشخصي». غير المسند إلى صحابي. وغير المرفوع إلى النبي ﷺ قول يؤخذ بالقبول، ويعتد به. وحجتهم في ذلك: أن التابعين تلقوا غالب

تفسيراتهم عن الصحابة[1] فمجاهد مثلاً يقول: «عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها».

وقتادة يقول: «ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئًا»[2] . وهذا رأى أكثر المفسرين.

تحقيق المسألة: لابن تيمية - يرحمه الله تعالى - كلمة جيدة في هذه المسألة ننقلها عنه في كتابه «مقدمة في أصول التفسير» فيما يلي: «قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟، يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم - وهذا صحيح - أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على مَنْ بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنّة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك[3] .

وهذا أيضًا ما استقر عليه بعض الباحثين المعاصرين كالدكتور/ محمد حسين الذهبي فى كتابه «التفسير والمفسرون» حيث يقول: «والذى تميل إليه النفس هو أن قول التابعي في التفسير لا يجب الأخذ به إلا إذا كان مما لا مجال للرأى فيه فإنه يؤخذ به حينئذ عند عدم الريبة، فإن ارتبنا فيه، بأن كان يأخذ من أهل الكتاب، فلنا أن نترك قوله ولا نعتمد عليه. أما إذا أجمع التابعون على رأى فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره[4].

مطلب في: خصائص ومميزات التفسير في عصر التابعين

يعتبر عصر التابعين - بالنسبة لعلم التفسير - مرحلة تالية لعصر الصحابة - رضوان الله عليهم - وامتداداً لخصائصه خاصة في ناحيتين اثنتين:

الأولى: أن خاصية التلقي والرواية، وعدم التدوين التي كانت الطابع المميز

---

(1) التفسير والمفسرون ١/ ١٢٩.

(2) المرجع السابق.

(3) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ٢٨.

(4) التفسير والمفسرون ١/ ١٣٠.

للتفسير فى عصر الصحابة ظلت كما هى فى عصر التابعين، بفارق بسيط وهو أن التلقى والرواية لم تكن مجموعة فى إقليم واحد كما كان الشأن فى المدينة المنورة فى التفاف الصحابة حول رسول الله ﷺ، وإنما أصبح لكل إقليم تلاميذ يلتفون حول صحابى أو أصحاب نزحوا إلى هذا الإقليم والتف أهل الإقليم للأخذ عنه أو عنهم.

الثانية: النقل عن بعض الروايات الإسرائيلية فى التفسير، انتقلت هذه الخاصية أيضًا من جيل الصحابة إلى جيل التابعين، ولكن أيضًا بفارق أكبر. ذلك أن النقل عن أهل الكتاب فى عصر الصحابة كان محصورًا للغاية، خاصة عند أبىّ بن كعب، وابن عباس، وابن مسعود - رضى الله عنهم - ولكن فيما لا يتعدى ما هو جاد فى ديننا من مسائل، أما عصر التابعين فقد كثرت الإسرائيليات بكثرة مَن أسلَم منهم.

هاتان الخاصتان انتقلتا إلى عصر التابعين بالنسبة لمسائل التفسير. أما الخصائص المميزة لهذه «المرحلة الثانية» (عصر التابعين) فأهمها ما يلى:

١ - بداية ظهور المذاهب والفرق، والكلام حول بعض الآيات التى حملها بعض المفسرين من التابعين آراءه الخاصة. وذلك كمسائل الكلام حول القضاء والقدر الذى نسب إلى كل من الحسن البصرى، وقتادة بن دعامة السدوسى - يرحمها الله تعالى.

٢ - اتساع الخلاف بين التابعين فى مسائل التفسير بصورة واضحة ومتباعدة بينما لم يكن الخلاف بين الصحابة فى تفسير آيات كتاب الله تعالى شيئًا ملموسًا، أو محسوسًا.

ومع هذا فإن هذه المسألة - أعنى مسألة الخلاف بين التابعين - لم تأخذ الفجوة العميقة التى سنراها فيما بعد، وإنما يمكن أن يقال «إنه خلاف» أى بالنسبة لما سبقهم من عصر الصحابة.

وإلا فما كان خلافهم ذا شأن كبير كما صار الحال عليه فيمَنْ بعدهم، كما لم يكن خلافهم في التفسير «كتفسير» وإنما كان خلافهم على حسب اختلاف رؤاهم في مستجدات الوقائع التي لم تسبق من قبل في عصر الصحابة، مع اختلاف البيئات التي انتقلوا إليها ووجدوا أنفسهم بإزائها، مما لم يألفوه في جزيرة العرب ـ من عادات وتقاليد وطبائع كان ينبغي عليهم مواجهتها لما طلبت آراؤهم فيها.

في حين أن اختلاف الصحابة لم يكن يتعدى ما عند واحد منهم من أسباب النزول، أو العلم بمفردات اللغة ما ليس عند الآخر، أو علم أحدهم بقراءة لا يعرفها غيره. كما لم يتعد خلافهم غير اختلاف العبادات حول مسمي متحد، أو أن يكون للفظ واحد عدة معان، فيحمله أحدهم على معنى، ويحمله الآخر على أحد المعاني الأخرى، أو أن يكون تعبيرهم عن المعاني بألفاظ متقاربة، وليست مترادفة ـ إلى غير ذلك من الأسباب التي تبدو اختلافًا وهي ليست كذلك في حقيقة الأمر.. غير أن الباحثين وضعوا لنا ما يشبه التقنين في ما لو وقع خلاف صريح بين قولين من أقوال الصحابة يتعذر الجمع بينهما في مسائل التفسير بإحدى الوسيلتين الآتيتين:

الأولى: إن تعارضت الأدلة تمامًا بحيث لا يمكن الجمع بينها فإن موقفنا من هذا التعارض أن نؤمن بمراد الله ـ عز وجل ـ ولا نلجأ إلى الميل لأحد القولين المتعارضين.

وتصبح المسألة بالنسبة لنا بمنزلة المجمل قبل أن يفصل، والمبهم قبل أن يبين، والعام قبل أن يخصص، والمتشابه قبل أن يفسر.

الثانية: يُقدم قول ابن عباس ـ إن كان له فيها قول ـ على آراء غيره (وهذا رأى الزركشي) لبشارة النبي ﷺ له.

مبحث في: التفسير بالمأثور

التفسير بالمأثور هو التفسير المنقول عن الرسول ﷺ، أو الصحابة، أو التابعين، فهو يشمل تفسير هذه الأجيال الثلاثة من حملة العلم ونقلته.

فهو إذًا جزء من علم رواية الحديث سواء كان مرفوعًا إلى النبي ﷺ، أو موقوفًا على الصحابي، أو مقطوعًا على التابعي.

ويشترط فيه ما يشترط في علم الحديث من ضوابط النقل وصحته.

مراحل التفسير بالمأثور:

يعتبر التفسير بالمأثور أهم أنواع التفاسير على الإطلاق إذا صحت روايته ونقله، وسلمت ضوابطه من عدالة الناقل، وصحة النقل متنًا وسندًا.

ولا يعدل عن هذا التفسير إلى سواه مع وجوده، وسلامة نقله إلى غيره من أنواع التفسير الأخرى.

هذا وقد مرَّ التفسير بالمأثور بعدة مراحل:

أ - **المرحلة الأولى:** هي مرحلة الرواية والتلقي مشافهة من صدور الشيوخ إلى عقول التلاميذ وهذه المرحلة هي المرحلة الطبيعية في حياة الأمة الإسلامية الأولى، إذ كان علم التفسير ناشئًا في أحضان علم الحديث حيث لم يكن ثمة علم يومئذ غير علم الحديث.

ومعلوم للباحثين أن الأمة الإسلامية ظلت مأمورة بعدم التدوين والكتابة إلا للقرآن الكريم وحده. فظل تدوين «ما عدا القرآن» محصورًا في نطاق ضيق جدًا يقتصر على بعض الأفراد الذين كانوا يسجلون ما يتلقونه من صدور الرجال في نطاقه المحدود هذا ومع التحرج والتأثم للنهي الوارد عن المعصوم ﷺ حيث قال:

١ ـ «لا تكتبوا عنى شيئًا ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه».

٢ ـ وما نقل عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ وقد سأله سائل أن يكتب له شيئًا من الحديث: «لا نكتبكم ولا نجعلها مصاحف، احفظوا كما كنا نحفظ على عهد رسول الله ﷺ».

وقد كان هذا هو حال الأمة الإسلامية فى شأن «التدوين» وهو المنع بصورة «رسمية» من تدوين غير القرآن حيث كان التدوين مقصورًا على القرآن الكريم وحده.

واستمر الحال على ذلك حتى مع وجود بعض النصوص المجيزة للكتابة من مثل قوله ﷺ:

١ ـ قيدوا العلم بالكتابة.

٢ ـ قيد العلم الكتاب.

٣ ـ اكتبوا فوالله ما صدر منى إلا حقًا.

إذًا هذه النصوص أخذها بعض الصحابة والتابعين على محمل خاص ومحدود للغاية، وأن الإذن بها كان لضرورة خاصة كالمعاهدات، والكتب إلى الملوك، أو الإذن لكاتب معين معروف بالتنسيق وحُسن الترتيب وجودة الخط كعبد الله بن عمرو بن العاص.

واستمر الامتناع عن الكتابة طبع الورعين الوجلين من الوقوع فى محظور النهى عن الكتابة واكتفى حملة العلم بنقله مشافهة من الصدور إلى الصدور حتى زمن الخليفة الأموى الراشد عمر بن عبد العزيز ـ يرحمه الله تعالى ـ (٩٩هـ ـ ١٠١هـ).

خشى عمر بن عبد العزيز ـ يرحمه الله ـ ضياع العلم بموت الصحابة وكبار

التابعين، كما بدأت بوادر الكذب على رسول الله ﷺ تظهر بعد ما انساح العرب في بلاد الأعاجم نتيجة الفتوحات ودخول بعض رؤساء الأديان في الإسلام دغلاً وحقداً لا إيمانًا وتصديقًا وهؤلاء بدأت أحقادهم على الإسلام تفرخ بيضتها.

فما كان من عمر بن عبد العزيز - يرحمه الله - إلا أن كلف ابن شهاب الزهرى بجمع الحديث وتدوينه وكان هذا أول أمر « رسمى » بتدوين العلم وكتابته. فانصاع ابن شهاب الزهرى لهذا الأمر مع تحرجه واعتذاره بقوله: «والله لولا أن عمر بن عبد العزيز أمرنا بالكتابة ما كتبت».

وقد استمرت مرحلة الرواية هذه حتى طالت ثلاثة أجيال هى:

١ - جيل الصحابة. ٢ - جيل التابعين. ٣ - جيل تابعى التابعين.

غير أن بداية «الإذن الرسمى» الذى أصدره عمر بن عبد العزيز كان فى بداية أواسط جيل التابعين حيث استمر الغالب فى نقل العلم على المشافهة - مع وجود الإذن بالكتابة - وقد كانت المشافهة هى السمة الغالبة فشملت جيل أواسط التابعين ثم صغار التابعين - ثم بداية تابعى التابعين فى أول العصر العباسى. وفى هذه المرحلة المباركة كانت مصادر التفسير هى :

١ - تفسير القرآن بالقرآن .

٢ - الحديث النبوى الشريف .

٣ - اجتهاد الصحابة: وكان هذا الاجتهاد مبنيًا على:

أ - اللغة. ب - قوة الاستنباط من النَّص القرآنى والقدرة عليه بما كان يملكه علماء الصحابة فى التفسير من الملكة الشخصية، ورؤية التنزيل.

٤ - كما كان هناك مصدر رابع لا يستهان به وإن لم يكن أساسيًا ألا وهو:

الرجوع إلى «مسلمة أهل الكتاب» من اليهود والنصارى.

ب - **المرحلة الثانية**: وهي مرحلة التدوين والكتابة: وهذه المرحلة بدأت منذ أن أصدر عمر بن عبد العزيز أوامره بالتدوين في أول القرن الثاني الهجري وظلت ممتدة إلى عصرنا الحاضر، فهي إذاً مرحلة عظيمة وهامة إذ تميزت بظاهرتين هامتين:

الأولى: استقرار التفسير بالمأثور في بطون المدونات التفسيرية، مما حفظ لنا هذا التفسير بأسانيده، وطرقه، ومروياته، ورواته في هذه المدونات العظيمة فبقيت إلى يومنا هذا، وإلى قيام الساعة إن شاء الله تعالى.

وأصبح في متناول كل باحث أن يطلع على ما فسَّره النبي ﷺ من آي القرآن وما فسره الصحابة الذين كانوا على علم بالتفسير وأهمهم الأربعة المكثرون من التفسير وهم: ابن عباس، وابن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وأُبَيّ بن كعب، وهم الذين قامت على أكتافهم فيما بعد مدارس التفسير المشهورة في الأقاليم الإسلامية وهي: مكة، والمدينة، والعراق.

الثانية: اكتشاف أي دخيل على هذا اللون من ألوان التفسير بمجرد قراءة «المروية التفسيرية» والنظر في رجالها، ونصّها، وذلك بالرجوع إلى السجلات الضابطة لتواريخ الرجال ومعرفة أحوالهم من صحة الرواية جرحًا أو تعديلاً.

وأهم المدونات التفسيرية التي سجلت لنا المرويات التفسيرية عن الأجيال الثلاثة المباركة هي:

١ - جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري.

٢ - معالم التنزيل لأبي محمد بن الحسين البغوي.

٣ - بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي.

٤ ـ تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء الحافظ ابن كثير.

٥ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي.

وهناك مدونات أخرى غير هذه أيضًا، كما أن منها ما جمع التفسير بالمأثور وحده فنقل التفسير بالرواية والأسانيد على ترتيب المصحف دون أن يدخل فيه شيئًا من الاجتهاد أو اللغة، أو النحو أو الأحكام كتفسير السيوطي، ومنها ما كان جامعًا للمأثور والاجتهاد المحمود معًا كتفسير الطبري، ومنها ما حذف أسانيد الرواية، وأوقفها فقط على مَنْ صدرت عنه مباشرة.

غير أن ما ينبغي الإشارة إليه أن مرحلة التدوين للمأثور مرت «داخليًا» هي الأخرى بأدوار أهمها ما يلي:

١ ـ **دور التبعية لعلم الحديث:** حيث بدأ التدوين لعلم الحديث إذ سبق أن قلنا بأنه حتى بداية العصر العباسي لم يكن ثمة علم يومئذ غير علم الحديث، حتى أن لفظ «العلم» في هذه الفترة التاريخية لم يكن يعرف إلا أنه علم الحديث. فبدأ جمع الحديث من صدور الحفظة إلى سطور الكراريس. ولما انتهت مرحلة الجمع من الصدور إلى السطور وفيها أحاديث ذات موضوعات شتى فمنها أحاديث تتعلق بالأحكام من طهارة، وصلاة، وآذان، وحج، وزكاة، وصوم، وبيع، وسلم، وصرف، ومزارعة، ومصانعة، وزواج، وطلاق، وحرب، وسلم، وأسرى، وتقاض. ومنها ما يتعلق بالتفسير وبيان مراد الله ـ تعالى ـ من كلامه المنزل على رسوله الكريم كأسباب النزول، و الناسخ والمنسوخ وغيرها. وهكذا جمعت الدواوين ما حفظته الصدور.

فلما عرف الناس التدوين عرفوا التبويب والتهذيب. فبدأوا يضمون الأحاديث ذوات الموضوع الواحد تحت باب واحد، والأبواب المتشابهة في علم واحد تحت كتاب واحد، فهذا كتاب في الطهارة يحتوي على أبوابها، وهذا كتاب في التفسير يحتوي على سور القرآن وما قيل في كل سورة من مأثور القول. وفي هذه المرحلة

المجمع علم التفسير فى باب مستقل داخل كتب الحديث ومصنفاته وأشهر من أفرد أبواب التفسير فى كتب المرويات الحديثة هم بالترتيب الزمنى:

١ ـ يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة ١١٧هـ .

٢ ـ شعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠هـ .

٣ ـ وكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧هـ .

٤ ـ روح بن عبادة المتوفى سنة ٢٠٥هـ .

٥ ـ عبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١١هـ .

٦ ـ آدم بن إياس المتوفى سنة ٢٢٠هـ .

٧ ـ عَبد بن حُميد المتوفى سنة ٢٤٩هـ .

٢ ـ دور الاستقلال عن علم الحديث: وفى هذه المرحلة استقلت الأحاديث المنجمعة فى كتب الحديث تحت عنوان «باب فى التفسير» أو تحت عنوان «كتاب التفسير» وصارت فى كتب مستقلة، ومصنفات خاصة عُرِفت بـ «التفسير المأثور».

واستمر هذا الدور من الثلث الأخير للقرن الثالث الهجرى إلى العقد الأول من القرن الهجرى.

وعُزِى جمع التفسير بالمأثور فى هذا الدور إلى ثُلَّة من العلماء كلهم من أهل الرواية الحديثية كما كان الحال فى الدور الأول دور التبعية لعلم الحديث.

وأشهر من جمع تفاسير مستقلة فى مصنفات فى هذا الدور هم حسب الترتيب الزمنى لوفياتهم:

١ ـ ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ هـ .

٢ ـ ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ .

٣ ـ أبو بكر النيسابورى المتوفى سنة ٣١٨ هـ .

٤ ـ ابن أبى حاتم المتوفى سنة ٣٢٧ هـ .

٥ ـ ابـــــن حـــبــــان المتوفى سنة ٣٦٩ هـ .

٦ ـ الحاكـم النيسابورى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ .

٧ ـ ابـــن مـــردويــــه المتوفى سنة ٤١٠ هـ .

٣ ـ دور اختصار الإسناد، أو حذفه نهائيًا : وفي هذا الدور خلا التفسير بالمأثور من ذكر السند، وبقيت المتون دون عزوٍ لقائل، وأصبح الإسناد موقوفـًا على أعلا راوٍ فى السند دون ذكر بقية الرواة.

وهذا أدى إلى أول مَدْرج من مدارج الوضع فى التفسير، كما كان أول إلباس يدخله مصنفو هذه الكتب على قارئيها في هذا الدور بحيث ظُنَّ ما ليس بصحيح صحيحًا. بل أصبح الأمر أكثر خطورة إذ تقلت الإسرائيليات فى هذه الكتب خالية من نقلتها، فأخذت على أنها حقائق تفسيرية ثابتة ومقطوع بها. إلى جانب أن مصنفى هذا الدور لم يحرروا المسائل التي قطع بالتفسير فيها إذ المعلوم أن ما قطع بتفسيره عن الصدر الأول لا يحتاج بعد ذلك إلى من يفسره.

ومع انتقال الأمة من تحويل العملية التعليمية من مرحلة التعليم بواسطة «التلقى» إلى مرحلة التعليم بواسطة «التدوين» فإن هذه الخطوة الأخيرة أحدثت خللاً خطيرًا. إذ ما كاد الناس يستغنون عن «التلقى» إلى «التدوين» حتى استغنوا أيضًا عن «الإسناد» إلى تصنيف الكتب في التفسير دون عزوٍ لقائل.

وهذا الخلل برمته فرَّخ فى هذه المرحلة ثلاث ظواهر سلبية هي:

١ ـ ظهور الإسرائيليات بشكل كبير، وعدّها كأنها حقائق ثابتة.

٢ ـ ظهور الوضع والكذب فى التفسير على غرار ما كان فى الحديث.

٣ ـ ظهور التفسير بالرأى.

❋ ❋ ❋

نموذج من مناهج المفسرين بالمأثور
ابن جرير الطبرى وتفسيره
« جامع البيان »

نتناول الآن - بحمد الله وتوفيقه - بعض المختارات والنماذج من كتب ومصنفات التفسير بالمأثور، ومناهج أصحابها فيها، وطريقة تناولهم لتفسير آيات الذكر الحكيم.

وسنعرض الآن لأولى هذه المختارات والنماذج فيما يلى:

١ - اسم المصنَّف: جامع البيان في تفسير القرآن.

اسم المصنِّف: أبو جعفر: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ. عدد أجزاء المصنَّف: ثلاثون جزءًا. إجمالى عدد صفحات المصنَّف: ٨٠٠٠ ثمانية آلاف صفحة على وجه التقريب لا التحديد إذ يختلف كل جزء عن الآخر حسب الطباعة الحديثة.

❊ الطبرى: حياته وتلقيه العلم: المحققون من أهل العلم سلَّمُوا لابن جرير الطبرى بالاجتهاد المطلق، لما جمعه من أدوات الاجتهاد الكاملة، ومعرفته بشتى الفنون معرفة تامة.

❊❊ ولد محمد بن جرير الطبرى سنة ٢٢٤هـ فى آمل بطبرستان، وإليها نسب.

❊❊ رحل من بلده طلبًا للعلم وهو فى الثانية عشرة من عمره، فنزل مصر، والشام، والعراق.

شيوخه: وأخذ العلم عن كبار شيوخ عصرهم فى هذه البلاد منهم:

محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب، وإسحاق بن إسرائيل، وأحمد بن منيع

البغوي، ومحمد بن حميد الرازي، وأبو همام الوليد بن شجاع، وأبو كريب محمد ابن العلاء، ويعقوب بن إبراهيم الدورقي، وأبو سعيد الأشج، ومحمد بن بشار، ومحمد بن المثنى، وعمرو بن علي، وغيرهم من أقران عصرهم في البلاد التي رحل إليهم فيها وهي: الشام، والعراق، ومصر.

منزلة الطبري في العلم: تكلم الخطيب البغدادي عن الإمام محمد بن جرير الطبري في «تاريخ بغداد» بما يعين الطالب على فهم المنزلة العلمية التي وصل إليها ابن جرير في عصره فقال: «كان أحد أئمة العلم، يحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله» وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحدٌ من أهل عصره. وكان حافظًا لكتاب الله، عارفًا بالقراءات، بصيرًا بالمعاني، فقيهًا في أحكام القرآن، عالمًا بالسنة وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخائضين في الأحكام ومسائل الحلال والحرام، عارفًا بأيام الناس وأخبارهم وله الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك، وكتابه: في التفسير لم يصنِّف أحد مثله. وكتاب سماه تهذيب الآثار لم أرَ سواه في معناه إلا أنه لم يتمه. وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة، واختيار من أقاويل الفقهاء. وتفرد بمسائل حفظت عنه. مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة.

قال أحمد بن أبي الطاهر الإسفراييني: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل على كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيرًا».

وقال عبيد الله بن محمد السمسار: «إن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ (يعني نسخه) قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة. فقالوا: هذا ربما تفنى الأعمار قبل تمامه فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة.

ثم قال: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحواً مما ذكره في التفسير، فأجابوه بمثل ذلك، فقال: إنا لله ماتت الهمم، فاختصره في نحو ما اختصر التفسير»[1].

* عدّه العلماء من الأئمة، وسلموا له بالاجتهاد المطلق حتى صار له مذهب فقهي عرف باسم «الجريرية» انتشر، وقلده فيه كثير من الناس ثم انقرض وكان أول أمره على مذهب الإمام الشافعي - يرحمه الله تعالى.

وهذا ما ينقله لنا السبكي في طبقات الشافعية على لسان ابن جرير الطبري فيقول: «أظهرتُ فقه الشافعي، وأفتيتُ به في بغداد عشر سنين، وتلقاه مني ابن بشار الأحول أستاذ أبي العباس بن سُريج»[2].

وذكره السيوطي في طبقات المفسرين فقال: «كان أولاً شافعيًا، ثم انفرد بمذهب مستقل، وأقاويل واختيارات، وله أتباع ومقلدون، وله في الأصول والفروع كتب كثيرة[3].

درجته في الرواية : اختلط على بعض علماء التاريخ كأحمد بن علي السليماني حالَ محمد بن جرير الطبري فنَسَبَ إليه ما لم يكن من حاله، حيث ذكر عنه أنه كان يَضَعُ للروافض. وقد ردَّ العلامة ابن حجر في «لسان الميزان» هذا الزعم فقال: «ثقة، صادق، فيه تشيع يسير، وموالاة لا تضر.. وقد أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ فقال عنه: «كان يضع للروافض، وهذا رجم بالظن الكاذب، بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين، وما نَدَّعي عصمته من الخطأ، ولا يحل

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢/ ١٦٢ - ١٦٩ باختصار.

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ٢/ ١٣٥.

(٣) طبقات المفسرين للسيوطي ص٣.

لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى، فإن كلام العلماء بعضهم فى بعض ينبغى أن يُتأنى فيه، ولا سيما فى مثل إمام كبير». ولعل السليمانى أراد ـ محمد بن جرير بن رستم الطبرى الرافضى.

قال ابن حجر: «ولو حلفت أن السليمانى ما أراد إلا ابن رستم هذا لبررت. والسليمانى حافظ متيقن كان يدرى ما يخرج من رأسه، فلا أعتقد أنه يطعن فى مثل هذا الإمام بهذا الباطل»[1] .

أوصافه: كان ـ رحمه الله تعالى ـ أسمر إلى الأدمة، أعين، نحيف الجسم، وريد التامة، فصيح اللسان، ولم يؤذ به أحداً[2] .

تلاميذه : حدث عنه: أحمد بن كامل القاضى، ومحمد بن عبد الله الشافعى، ومخلد بن جعفر، وخلق كثير[3] .

تفسيره : يطلق بعض الباحثين على ابن جرير أنه: «أبو التاريخ» كما يطلقون عليه أنه «أبو التفسير» وهذا الإطلاق فى الأوصاف لم يأت من فراغ.

ومعنى أنه أبو التاريخ: أنه أول مؤرخ فى الإسلام وضع تاريخًا موثقًا للبشرية منذ أول آدم عليه السلام واستوعب تاريخ الأرض استيعابًا لم يسبقه فيه أحد فى الإسلام. ونفس هذا المعنى ينسحب عليه فى علم التفسير.

فهو «أبو التفسير» وواضع أول كتاب «كامل». فى تفسير جميع آيات القرآن الكريم آية آية بكل مروياتها المأثورة بطرقه هو التى تلقاها عن المفسرين المحدثين.

---

(١) لسان الميزان ١/ ١٠٠ ـ ١٠٢ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢/ ١٦٢ ـ ١٦٩ .

(٣) المصدر السابق .

وقد أجمع الباحثون من الإسلاميين والمستشرقين على السواء على أن في تفسير الطبري غنية وكفاية عن سائر التفاسير: يقول ابن تيمية في «الفتاوى»: «وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير ابن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين كمقاتل بن سليمان، والكلبي »[١].

وينقل المستشرق الألماني « جولد زيهر» عن مقال كتبه المستشرق «نولدكه». في سنة ١٨٦٠م بعد أن قرأ شيئًا عن كتاب جامع البيان للطبري- ولم يكن كتاب الطبري قد ظهر طبعه بعد - فقال : « لو كان بيدنا هذا الكتاب لاستغنينا به عن كل التفاسير المتأخرة ومع الأسف فقد كان يظهر أنه مفقود تمامًا، وكان مثل تاريخه الكبير مرجعًا لا يغيض معينه أخذ عنه المتأخرون معارفهم»[٢].

هذا والحمد لله فقد ظهر الكتاب من عهد قريب، إذ وُجدت نسخة خطية في حوزة الأمير حمود بن عبد الرشيد أمير حائل بمنطقة نجد بالسعودية فطبع عليها الكتاب، وتداولته أيدي طلاب العلم[٣].

مطلب في : منهج ابن جرير في تفسيره :

تنحصر جملة مناهجه التي سلكها في كتابه«جامع البيان» في عدة نقاط :

أولها :التزامه التام بالنقل المأثور عن الأجيال الثلاثة الأولى مع ذكر سلسلة الرواية كاملة حتى تنتهي إلى قائلها الأصلي مرفوعة إلى النبيّ ﷺ ، أو موقوفة على الصحابة، أو مقطوعة على التابعي .

---

(١) فتاوى ابن تيمية ٢/ ١٩٢.
(٢) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٨٥.
(٣) التفسير والمفسرون للذهبي ١/ ٢٠٤.

والطبـــرى ينقل سلســلة الرواية بطريــقــه هو. وهو وإن لم يــفند هذه الرواية من حـيث القوة والضـعف، ولـم يحكم عليهـا إلا أنه يكون - أى بمجرد ذكر سلسلة الرواية -يكون قد خرج من العـهدة العلمية. علمًا بأن الطبرى التـزم بعدم النقل عن المشـهورين بالتلفـيق والكذب كمـقاتل بن سليمان، ومحمد بن السائب الكلبى كما سبق أن نقلناه عن ابن تيمية.

ثانيــها: يبدأ الآية التى يريد أن يفسرها بذكـر معناها العام إجمالاً بما يتفق له مع مأثور الرواية عنده فيقول :

« القول فى تأويل قول الله تعالى : ﴿ فـإذا أمنتـم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج ﴾ يقول : فـإذا أمنت حين تحصر؛ إذا أمنت من كســرك، من وجعك فعليك أن تأتـى البيت فيكون لك مـتعة فـلا تحل حتى تأتى البـيت. وقال آخرون معنى ذلك : فإذا أمنتم من وجع خوفكم.

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر، قـال : حدثنا يزيد، قال حدثنا سعيـد، عن قتادة قوله : ﴿ فإذا أمنتم﴾ لتعلموا أن القـوم كانوا خائفين يومئذ[1]. ثم يعـدد الروايات فى ذكر من قال بهذا المعنى إن كان فيها أكثر من طريق، أو أكثر من قائل.

ثالثها : لا يقف مكتوفًا على مجرد الرواية، وإنما :

١ - يتـعـرض لنقـدها إذا تبين له أن الرواية مـخـالفـة لـظاهر النَّص القرآنى. فنراه يتعـرض لمجاهد بن جبر عندما قال فى قـوله تعالى ﴿ فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ قال : مـسخت قلوبهم ولـم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل أسفارًا .

---

(١) جامع البيان ٢/ ١٤٣ .

يَرُدُّ ابن جرير قـول مجـاهد هذا فيقـول: «وهذا القول الذي قـاله مجـاهد قول لظاهر ما دل عليه كتاب الله مخالف»[1].

والطبري هنا يميل إلى الأخذ بالمذهب الظاهر من لفظ القرآن فحين أن الحق قد يكون مع مجـاهد، فلا سـبيل إلى القطع إذن بأن مراد الله تعـالى في هذا هو المسخ الحقيقي أو المسخ المجازي.

٢ ـ أو يرجح بين قولين فيختار أحدهما دون الآخر كما في قوله تعالى: ﴿تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ فيها قولان، ولكل قول منها روايات:

الأول: أنا أول المؤمنين بك من قومي أن لا يراك في الدنيا أحـد إلا هلك. فيأتي الطبري بأسـانيده على ذكر من قـال ذلك وهم: أبو العالية، والربيع، ومجاهد، وابن عباس.

الثـاني: أنا أول المؤمنين بك من بـني إسرائـيل. فيـذكـر أن ذلك قـول عكرمـة، ومجاهد في رواية أخرى عن ابن عباس. ثم يختار الطبري القول الثاني ويعلل هذا الاخـتيـار بقوله: «لأنـه كان قـبله في بني إسـرائيل مؤمنون وأنـبيـاء منهم من ولد إسرائيل لصلبه، وكانوا مؤمنين وأنبياء فلذلك اخترنا القول الذي قلناه قبل»[2].

رابعها: يحتكم الإمام الطبري إلى اللغة، والمعروف من كلام العرب عندما يجد أن الآراء تتعـاوض مع المفهـوم اللغوي، وهذا له مـن النماذج في تفـسير الـطبري الشيء الكثـير. ويدخل فـي هذا المنهج احتكام الطـبري إلى الشـعر القـديم، وهذا أيضًا شواهده كـثيرة يلمسـها الطالب عندما يضع الكتاب عـمليًا بين يديه، ويقلب في صفحاته جزءًا جزءًا.

---

(١) جامع البيان ١/ ٢٥٢.

(٢) جامع البيان ٩/ ٥٥ ـ ٥٦.

خامسها: يعنى عناية فائقة بذكر القراءات، ويثبت منها ما صحت روايته ويرد القراءات الواردة من غير أئمتها المشهود لهم بصحة الرواية.

وابن جرير الطبرى فى هذا يصدر عن قدم راسخ فى علم القراءات، فإنه ألف فى هذا العلم كتابًا ضخمًا فى ثمانية عشر مجلدًا كما يذكر ذلك ياقوت الحموى فى ترجمة ابن جرير[1].

سادسها: يكثر الطبرى من إيراد مسائل النحويين والصرفيين حسب مدارسهم المختلفة، ويبين وجوه الإعراب إذا كان لها فى الآية أكثر من وجه.

سابعها: يتعرض كثيراً لذكر المرويات المنقولة عن مسلمة أهل الكتاب من اليهود والنصارى أو ما يُعرف باسم «الإسرائيليات».

وابن جرير فى ذلك متأثر بمواقف المفسرين فى عصره فى النقل عن الروايات الإسرائيلية وربما كان لاشتغاله بالتواريخ القديمة أثرها عليه فى ذلك النقل أيضًا.

وتفسير الطبرى فى هذه الناحية من منهجه يحتاج إلى دقة القارىء فى تمحيص الرواية والوقوف على صحتها.

ثامنها: وقوفه كثيرًا عند الآيات التى تتناول الحلال والحرام، وتعنى بالمسائل الفقهية، فيذكر عندها آراء الفقهاء. وتظهر فى العرض لهذه المسائل ملكة الاجتهاد عنده، فيختار الرأى الراجح، أو يخلص هو إلى رأى بنفسه، ويسوق الأدلة العلمية عليه[2].

هذا إلى جانب تعرضه لمسائل تخص علم الكلام والجدل، كما أنه يقف فى وجه من يتصدى لتفسير الآيات بالرأى المجرد، ويصفه بالخُلُوِّ عن العلم[3].

---

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموى ١٨/ ٤٥.

(٢) راجع فى ذلك ص ٥٧ وما بعدها من الجزء الرابع عشر.

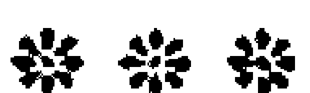
(٣) راجع ص ١٣٨ من الجزء الثانى عشر، وغيره كثير.

هذا وقد عكف الطبرى على تفسير كتابه «جامع البيان» زهاء سبع سنوات يمليه على أصحابه إملاءً .

وكانت أهم مروياته المأثورة فى هذا التفسير ما ذكره ياقوت فى معجم البلدان ونقلها الشيخ محمد حسين الذهبى فقال: « ذكر فيه من كتب التفاسير المصنفة عن ابن عباس خمسة طرق، وعن سعيد بن جبير طريقين، وعن مجاهد بن جبر ثلاثة، وعن عكرمة ثلاثة طرق، وعن الضحاك بن مزاحم طريقين، وعن عبد الله بن مسعود طريقًا .

وتفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وتفسير ابن جريج، وتفسير مقاتل بن حيّان. سوى ما فيه من مشهور الحديث عن المفسرين وغيرهم، وفيه من المسند حسب حاجته إليه.

ولم يتعرض لتفسير غير موثوق به، فإنه لم يدخل فى كتابه شيئًا عن كتاب محمد بن السائب الكلبى، ولا مقاتل بن سليمان، ولا محمد بن عمر الواقدى لأنهم عنده أظنّاء»[1] .



(١) التفسير والمفسرون ١/ ٢١٨ .

مبحث في: التفسير في بداية عصر التدوين

من المعروف علميًا أن عمر بن عبد العزيز خامس الراشدين - يرحمه الله تعالى - هو أول من اتخذ خطوة عملية نحو نقل الأمة الإسلامية كلها من عصر تلقي العلم رواية ومشافهة إلى مرحلة تسجيل العلم واستعمال القراطيس، وتدوين العلوم.

وأحسب أن ذلك القرار - في ذلك الوقت - كان يُعد انقلابًا هائلاً في الحركة العلمية. ذلك أنه قد مرّ قرن كامل وحركة التعليم كلها قائمة على المشافهة وتلقي الرواية وذلك للمنع الصادر من رسول الله ﷺ، ونهيه عن كتابة شيء سوى القرآن الكريم.

ولقد أشبع الباحثون هذه المسألة بحثًا، وعزوها إلى أن التحذير الوارد فيها كان خوف إلباس كتاب الله ما ليس منه، فلما أُمن اللبس ظهر الأمر، والإذن بالكتابة في قوله ﷺ: «قيّدُوا العلم بالكتاب» . وقوله: «اكتبوا فوالله ما صدر مني إلا حقًا». مما حدا ببعض الباحثين إلى محاولة التأكيد على أن الكتابة ظهرت في عصر مبكر قبل عمر بن عبد العزيز[1] .

وأيًا ما كانت الآراء فإن الكُلّ مجمع على أن «عصر التدوين» لم يأخذ السمة البارزة له والتي تستحق تطابق هذه التسمية إلا في أواخر عهد الدولة الأموية، وأول قيام دولة العباسيين أي قبيل منتصف القرن الثاني الهجري.

وفي هذا الوقت بدأت المرحلة الثالثة للتفسير بعد المرحلة الأولى في عصر الصحابة، والمرحلة الثانية في عصر التابعين وظهور مدارس التفسير في مكة، والمدينة، والعراق، وبعض الباحثين ينظر إلى هذه المرحلة الثالثة نظرة ثانية:

---

(١) دلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث د/ امتياز أحمد ص ٢٦.

١ - فيعتبر جيل الصحابة وجيل التابعين خطوة أولى فى التفسير تعتمد على تلقى العلم رواية.

٢ - ومرحلة مابعد التابعين خطوة ثانية لتلقى العلم عن طريق التدوين والكتابة، وهذا التقسيم لا مشاحة فيه لأنه من قبيل اصطلاح العلماء(١).

مطلب فى التدوين :

أ - **فى بداية مرحلة التدوين :** لم يكن هناك ثمة علم غير علم «الحديث» وجُلّ اهتمام المدونين كان مقتصراً على الحديث النبوى الشريف ، مع تنوع أبواب الحديث فى كافة العلوم كالفقه، والتاريخ وغيرهما .

ولا شك أن علم التفسير كان أحد الأبواب الهامة التى أفرد لها المحدثون مكانًا رحبًا فى كتبهم، فأفردوا تحت هذا الباب مرويات الصحابة والتابعين فى تفسير آيات القرآن الكريم سواء ما كان منها مرفوعًا إلى النبى ﷺ ،أوموقوفًا على الصحابة، أو مقطوعًا على التابعين.

وكان الطابع المميز لهذه الفترة فى بداية التدوين ما يلى :

١ - لم يفرد للتفسير تأليف خاص به منفصل عن علم الحديث ومستقل بنفسه.

٢ - لم يعرف أن أحدًا قام بتفسير كل آيات القرآن الكريم سورة وآية. وإن كان«ماجمع ودوِّن هو ماروى من الآثار فى آيات وسور متفرقة» .

وأشهر من تصدى لتدوين التفسير وأفرده كباب من أبواب الحديث منهم:

١ - يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة ١١٧هـ .

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١٤٥.

٢- شعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هـ .

٣- وكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧هـ .

٤- روح بن عبادة المتوفى سنة ٢٠٥ هـ.

٥ - عبد الرزّاق بن همّام المتوفى سنة ٢١١هـ .

٦- آدم بن إياس المتوفى سنة ٢٢٠ هـ.

٧ - عبد بن حميد المتوفى سنة ٢٤٩هـ .

ولعلك تلاحظ أن هذه الأسماء لأشخاص برزوا فى علم الحديث، فلم يكن شأنًا مستغربًا أن يكون التفسير عندهم من أبواب علم الحديث.

ولم يكن مستغربًا أيضًا أن يكون ماجاء فى هذه الأبواب إنما هى مروياتهم هم بأنفسهم تلقوها عمن سبقهم. بفارق واحد فقط هو أنهم قيدوها ودونّوها فى الكتب. ومن قَبْلَهَم، كانت من محفوظات الصدور لا من مكتوبات السطور .

ب - المرحلة الثانية فى عصر التدوين : هى «مرحلة الاستقلال عن الحديث».

فى أول القرن الرابع الهجرى أخذت تبرز شخصية «علم التفسير» كعلم مستقل بذاته له مصنفاته الكاملة فى تفسير آيات القرآن آية آية، وعُزِى ذلك إلى طائفة من العلماء نذكر أشهرهم فيما يلى حسب ترتيب وفياتهم.

١ - ابن ماجه صاحب السنن المتوفى سنة ٢٧٣ هـ .

٢- ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ .

٣- أبو بكر بن المنذر النيسابورى المتوفى سنة ٣١٨هـ.

٤ - ابن أبى حاتم المتوفى سنة ٣٢٧هـ.

٥- أبو الشيخ بن حبان المتوفى سنة ٣٦٩هـ .

٦- الحاكم النيسابورى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ .

٧ ـ وأبو بكر بن مردويه المتوفى سنة ٤١٠ هـ.

ويلاحظ على التفسير فى تلك الفترة الخصائص التالية:

*الاستقلال التام فى مؤلفات خاصة.

* لا يوجد فيها من آراء المفسر الشخصية شيء يذكر إلا ما عند ابن جرير الطبرى من توجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، وإعراب بعض الآيات أحيانًا، واستنباط بعض الأحكام أحيانًا أخرى ـ وسنعرض لذلك إن شاء الله تعالى.

* ما يوجد فى هذه التفاسير ـ رغم استقلالها بمصنفات ـ أنها مرويات صاحب الكتاب المفسر عمن سبقه من مفسرى أتباع التابعين، ثم التابعين، ثم الصحابة ـ رضى الله عن الجميع ـ بسلسلة روايته هو شخصيًا عن هؤلاء. وبهذه الخاصية الأخيرة تكون الخصائص متصلة منذ عهد الصحابة إلى وقت المرحلة الثانية من عصر التدوين.

وما ينبغى أن يعرفه طالب العلم أن هذا لم يكن أبدًا أول ما دوّن من الكتب على سبيل الاستقلال على وجه الإطلاق، فلا يعدم أن يكون لأحد العلماء ممن سبقهم كتاب مجموع فى تفسير كل القرآن أو غالبه، وما ذكرناهم متطوع بينهم، وأما من قبلهم فاجتهادات باحثين، واستقراءات متتبين، ومن هؤلاء المجتهدين المتتبين من يقول بأن الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ هو أول من دون تفسيرًا جامعًا لكل آيات القرآن مرتبًا على وفق ترتيب المصحف، أو سعيد بن جبير المتوفى سنة ٩٥ هـ أو عبد العزيز بن جريج المتوفى سنة ١٥٠هـ. والذى نعرفه الآن أن تفسير الفراء المعنون بـ «معانى القرآن». مطبوع بين أيدينا فى ثلاثة أجزاء وهو وإن كان لكل سور القرآن إلا أنه يبقى خاصًا بمعاني القرآن فقط دون استقصاء لأحكامه وسائر فنون التفسير الأخرى، فهو وإن استوعب السور إلا أنه لم يستوعب كل

آيات السور آية آية. فيبقى تقرير المسألة على ما ذكرناه من أن حصر الكتب المصنَّفة فى التفسير بالمعنى العام فى هذه الكتب السبعة من سنة ٢٧٣هـ إلى ٤١٠هـ.

حـ - المرحلة الثالثة : ويعرّفها الباحثون بأنها مرحلة اختصار الأسانيد، أو حذفها نهائيًا من التفسير. واشتراك هذه المرحلة مع ما سبقها من مراحل إنما هو فى استمرار التفسير بالمأثور والجديد فى هذا «المأثور» أنه خلا من السند، وبقيت المتون دون إسناد، أو على أقل تقدير أوقف النقل على أعلا رجل فى الإسناد، واختصرت السلسلة كلها.

وهذا أدى إلى أول مدرج من مدارج الوضع فى التفسير، كما كان أول إلباس يدخله مصنفو هذه الكتب على قارئيها فيظنون ما ليس بصحيح صحيحًا.

كما أصبح الأمر أكثر خطورة من ذلك إذ نقلت الإسرائيليات فى هذه الكتب على أنها حقائق ثابتة ومقطوع بها. إلى جانب أن مصنفيها لم يحرروا المسائل التى قُطِع بالتفسير فيها، ومعلوم أن المقطوع بتفسيره بالنَّص لا يحتاج بعده إلى تفسير. فإذا عرفنا من تفسير النبى ﷺ أن «الكوثر». فى قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ نهر فى الجنة أعطاه الله لنبيه، والخطاب موجه إلى النبى ﷺ، فليس لأحد من المفسرين بعد ذلك أن يفسر الكوثر بغير ما فسره النبى ﷺ.

والذى حدث فى هذه المرحلة «الخطيرة» أنه مع انتقال الأمة من تحويل العملية التعليمية من مرحلة التعليم بواسطة «التلقى».. إلى مرحلة التعليم بواسطة «التدوين» والكتابة، فإن هذه الخطوة الأخيرة أحدثت خللاً بالغ الخطورة! إذ ما كاد الناس يستغنون عن «التلقى» إلى «التدوين» حتى استغنوا أيضًا عن «الإسناد». إلى تصنيف الكتب فى التفسير دون عزو لقائل، كما كان الحال طوال عصور الصحابة،

التابعين وأتباع التابعين.

هذا الخلل برمته فَرّخَ فى هذه المرحلة ثلاث ظواهر سلبية خطيرة هى:

١ ـ ظهور الإسرائيليات وتفشيها فى التفسير، واعتبارها حقائق مسلّمة.

٢ ـ ظهور الوضع والكذب فى التفسير علي غرار ما كان فى علم الحديث.

٣ ـ ظهور عصر التفسير العقلى.

مبحث فى: التفسير بالرأى

التفسير بالرأى هو أحد قسمى التفسير الرئيسين وهما التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأى، ويقال له أيضًا بالاجتهاد.

والتفسير بالرأى (الاجتهاد) نوعان:

الأول: التفسير بالرأى الجائز. **الثانى:** التفسير بالرأى الممنوع (المذموم).

وقد ظهر التفسير بالمأثور فى أول الخلافة العباسية مع بداية ظهور العصر العباسى الأول عندما كثرت الفرق والمذاهب، وبرزت على الساحة الحركات الفكرية والعقلية كالمعتزلة وغيرهم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن التفسير الاجتهادى ليس معناه طرح التفسير بالمأثور المنقول عن سلف الأمة، ولكن معناه الاجتهاد فى تفسير ما لم يثبت فيه منقول صحيح، ولا أثر مروى. وأيًا ما كان فإن العلماء اختلفوا فى جواز التفسير الاجتهادى. فذهب قوم إلى منعه تمامًا، وقالوا لا يجوز لأحد بعد الأجيال الثلاثة الأولى أن يفسر القرآن مهما بلغت مرتبته من العلم، وأقاموا على ذلك أدلة كثيرة. وذهب آخرون إلى نقيض ما ذهب إليه الأولون فأجازوا لمَنْ كان ذا علم وبصر، وتكاملت فيه أدوات علمية معينة أن يجتهد فى التفسير.

وهؤلاء نقضوا أدلة المانعين، وحددوا شروطًا للمفسّر المجتهد إذا توفرت في أحد جاز له أن يخوض في بيان مراد الله ـ تعالى ـ من آياته .

أدلة الفريقين

أدلة المانعين للتفسير بالرأى :

استدل المانعون للتفسير بالرأى بأدلة كثيرة نذكر أهمها فيما يلى، ونعقبها بنقض المجوزين للتفسير بالمأثور وهى:

الدليل الأول: قالوا: إن التفسير بالرأى قول على الله بغير علم «صغرى»، والقول على الله بغير علم منهى عنه «كبرى». فالتفسير بالرأى منهى عنه «نتيجة».

دليل الصغرى: أن المفسر بالرأى ليس على يقين بأنه أصاب ما أراد الله تعالى ولا يمكنه أن يقطع بما يقول، وغاية الأمر أنه يقول بالظن، والقول بالظن قول على الله بغير علم.

ودليل الكبرى: أن الله تعالى جعل القول بغير علم من المحرمات الأربع المذكورة فى قوله تعالى: ﴿قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾[1] .

وردّ المجوّزون للتفسير بالرأى هذا الدليل فقالوا: نمنع الصغرى: لأن الظن نوع من العلم إذ هو إدراك الطرف الراجح وعلى فرض التسليم بالصغرى فإنّا نمنع الكبرى لأن الظن منهى عنه إذا أمكن الوصول إلى العلم اليقينى.

أما إذا لم يوجد العلم اليقينى فالظن كاف لاستناده إلى دليل شرعى مقطوع به،

---

(١) الأعراف :٣٣ .

وهو قوله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها﴾[1] .

وقوله ﷺ: «من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر». وكذلك قوله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن فقال له: «بمَ تحكم يا معاذ؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟قال: بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيى ولا آلو». فضرب رسول الله ﷺ صدر معاذ وقال: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله»[2] .

الدليل الثانى : أن المبين عن الله تعالى والمفسر لآياته هو النبىُّ ﷺ لقول الله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾[3] . فليس لغيره أن يفسر آيات الله تعالى.

ورد المجوزون هذا الدليل فقالوا: نعم النبىُّ ﷺ مأمور بالبيان، وقد بيَّن ما احتاج الناس إلى تفسيره فى عصره، وقبض ولم يرد عنه تفسير القرآن آية آية. وما لم يرد عنه فيه شيء من التفسير فللمجتهدين من أهل التفسير فيه فِكْر ونظر دعاهم الله تعالى إليه فى آيات كثيرة منها: ﴿لعلهم يتفكرون﴾[4]. ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[5] . ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾[6] .

الدليل الثالث: ما ورد من السّنة المشرفة من تحريم القول فى القرآن بالرأى ومنه: -

---

(١) البقرة :٢٨٦ .

(٢) التفسير والمفسرون ١/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٣) النحل :٤٤ .

(٤) الأعراف :١٧٦ ، الحشر :٢١ .

(٥) محمد : ٢٤ .

(٦) النساء : ٨٣ .

أ - قوله ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» رواه الترمذي عن ابن عباس - رضي الله عنهما .

ب - قوله ﷺ: «مَنْ قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ» رواه أبو داود عن جندب بن جنادة. وأجاب المجوزون عن هذين الحديثين بما يأتي:

١ - أن الحديثين محمولان على مَنْ قال في القرآن برأيه فيما هو ممنوع من تفسيره أصلاً كمتشابه القرآن، ومشكله مما لا يعلم إلا بالنقل الصحيح عن المعصوم ﷺ.

٢ - أنهما محمولان فيمن قال في القرآن برأيه وهو يعلم أن الحق بخلافه كأصحاب المذاهب الفاسدة.

٣ - أنهما محمولان على قول مَنْ يفسر بغير مستند من نقل، أو لغة صريحة دالة على البيان.

الدليل الرابع: ورد المنع عن الصحابة والتابعين أن يفسر أحدٌ القرآن برأيه، بل كانوا يهابون تفسير القرآن ويعظمونه، ويتحرجون أن يقولوا فيه باجتهادهم.

١ - سئل أبو بكر - رضي الله عنه - في تفسير حرف من القرآن فقال: «أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، وأين أذهب، وكيف أصنع إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى» .

٢ - وما ورد عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن الحلال والحرام تكلم، وإذا سئل عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع شيئًا» .

٣ ـ وهذا رجل يقابل مجاهد بن جبر فيقول لمجاهد: «أنت الذى تفسّر القرآن برأيك؟ فبكى مجاهد، ثم قال: إنى إذًا لجرىء، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلاً من أصحاب النبى ﷺ ورضى عنهم»[١] .

وأجاب المجوزون عن هذه الأقوال الواردة فى الدليل بما يأتى:

أ ـ أن قول هؤلاء إنما كان منهم ورعًا واحتياطيًا، وتواضعًا أولاً، مخافة ألا يبلغوا ما يعتقدونه أنه مراد الله ـ تعالى ـ لأنهم كانوا يرون التفسير بمثابة الشهادة على الله ـ تعالى ـ أنه عنى هذا فأمسكوا وأحجموا خوف ألا يبلغوا هذه الغاية.

ب ـ أن إحجامهم عن التفسير كان فيما لم يعرفوا وجه الصواب فيه.

جـ ـ أن امتناع أحدهم إنما كان لوجود مَنْ يعتقد أنه أفضل منه فى هذا الباب يكفيه مؤنة التفسير، وإلا فما كان ليتردد أبدًا إذا سئل[٢] .

ومع ردّ المجوزون على أدلة المانعين وإبطالها إلا أنهم مع ذلك أثبتوا صحة ما ذهبوا إليه من جواز التفسير بالرأى أى بالاجتهاد فى الآيات التى لم يرد فيها عن الأجيال الثلاثة نقلاً صحيحًا بأدلة كثيرة أهمها ما يلى:

الأول : أن الله ـ تعالى ـ حث على تدبر القرآن، وعلى أن فى القرآن الكريم ما ينبغى للعلماء وأولى الألباب أن يتدبروه ويستنبطوه، ويصلوا إليه بعقولهم فى آيات كثيرة منها:

أ ـ قوله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾[٣] .

ب ـ وقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[٤] .

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١٠٧.

(٢) مناهل العرفان فى علوم القرآن للزرقانى ١/ ٥٦ ـ ٥٧ .

(٣) ص : ٢٩ .

(٤) محمد : ٢٤ .

جـ - وقوله تعالى: ﴿ولو رَدُّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾(١) .

ولا يعقل أن يكون تفسير لم يستأثر الله - تعالى - بعلمه محظوراً على الناظر المتدبر مع أنه طريق العلم وسبيل المعرفة.

الثاني: ثبت عن الصحابة الكرام - خاصة الذين كانت لهم عناية بالتفسير منهم - أنهم قرأوا القرآن، واختلفوا في تفسيره فيما لم يسمعوه من النبيّ ﷺ ولو لم يكن التفسير بالرأى جائزًا لِمَ اختلفوا وأبان كل منهم عن وجهة نظره واجتهاده في الآيات.

الثالث: لو كان التفسير بالرأى غير جائز لما كان الاجتهاد جائزًا ولتوقف الأحكام، وهذا بيِّنُ البطلان.

الرابع : ثبت أن النبيَّ ﷺ دعا لابن عباس - رضى الله عنهما - قائلاً في دعائه: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل».

ولو كان التفسير مقصوراً على السماع والنقل لما كانت هناك فائدة لتخصيص رسول الله ﷺ ابن عباس بالدعاء.

هذا ولو دققت النظر في هذين القولين، وفي أدلتهما: لوجدت أن كلاً منهما يحاول أن يتمسك برأيه ويطير به فرحًا، ويتحفك بالأدلة كأنه أقنعك، وأبطل حُجَّة الخصم مع العلم بأن الخلاف لا يعدو أن يكون خلافًا لفظيًا لا حقيقيًا.

ومع ذلك فلا يجوز - عند مَنْ يقول بعلم التفسير - أن يقدم على كتاب الله ليفسره عن الله - تعالى - ما لم يستجمع شروط المفسر وأدواته وهي كما يلي:

---

(١) النساء :٨٣ .

أولاً: شروط المفسر:

ينبغي ألا يتصدى للتفسير من لم يُحط بمجمل الشروط التي حددها العلماء لمن يتصدى للبيان عن مراد الله - تعالى - وأهمها:

١ - أن يكون المفسِّر صحيح الاعتقاد بالله تعالى، فإن صحة العقيدة تقي المفسِّر من تحريف النصوص، وخيانة الآيات، والوقاية من الزلل فيها.

٢ - التخلي عن الأهواء المذهبية، والتحلي بالحق لوجه الحق دون ليِّ أعناق الآيات لمذهب يروج له، أو عقيدة خاصة ينحرف بالقرآن إليها.

٣ - ألا يخوض في التفسير الاجتهادي حتى يتم له النظر والإثبات في التفسير بالمأثور على النحو التالي:

أ - أن يطلب التفسير من القرآن نفسه، فإن القرآن يشرح بعضه بعضًا في آيات مختلفة.

ب - ثم إن لم يجد: طلب التفسير من السنّة فإن النبي ﷺ هو المبين الحقيقي عن الله - تعالى - ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم﴾[1] .

جـ - ثم إن لم يجد: طلب التفسير في أقوال الصحابة، فهم أقرب الناس جميعًا إلى رؤية الوحي، ومعرفة الوقائع، وأقرب إلى التقوى وسمت النبي ﷺ، وأقرب الأجيال جميعًا إلى الملكة اللغوية التي نزل بها القرآن الكريم.

د - ثم إن لم يجد: اجتهد في تفسير آيات الذكر الحكيم بما حَصَّل من الأدوات الضرورية واللازمة لكل مفسر وهي تحصيل العلوم المعينة على التفسير والبيان وأهمها:

---

(١) النحل : ٤٤ .

١ ـ العلم باللغة العربية. ٢ ـ العلم بالنحو. ٣ ـ العلم بالاشتقاق.
٤ ـ علم الأبنية. ٥ ـ علوم البلاغة الثلاثة: المعانى، والبيان، والبديع.
٦ ـ علم القراءات. ٧ ـ علم الكلام. ٨ ـ علم أصول الفقه.
٩ ـ علم أصول الدين. ١٠ ـ علم السيرة والقصص.
١١ ـ علم الناسخ والمنسوخ. ١٢ ـ علم الحديث. ١٣ ـ علم الموهبة.

ثانياً: آداب المفسِّر:

١ ـ حُسن النية، وسلامة القصد لله تعالى.
٢ ـ حُسن الخلق. ٣ ـ الورع والتقوى.
٤ ـ تحرى الصدق والضبط فى النقل. ٥ ـ عِـزّة النفـس.
٦ ـ التواضع ولين الجانب. ٧ ـ الجهـر بالحـق.
٨ ـ التروى والأناة فى سَرْد التفسير. ٩ ـ حُسن الإعداد وطريقة الأداء.
١٠ ـ تقديم مَنْ هو فى العلم أولى منه.

والله أعلم

* * *

نموذج من مناهج المفسرين بالرأى المحمود
فخر الدين الرازى، وكتابه : مفاتيح الغيب

التعريف به :

هو : أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن على. تنحدر أصوله إلى الأصل العربي فهو : بكرى من بنى تميم.

مولده :

ولد أبو عبد الله فخر الدين : فى مروْ من كور طبرستان فى سنة ٥٤٤ هـ. ونسب إليه واشتهر بهذه النسبة : فخر الدين الرازى وتوفى بها سنة ٦٠٦ هـ.

تلقيه العلم :

أخذ أكثر علومه عن أبيه خطيب الرّى فى زمانه: ضياء الدين عمر، كما أخذ عن الكمال السمعانى، والمجد الجيلى ، وكثير من علماء عصره. حتى أصبح فريد عصره، ومتكلم زمانه .

كان إماماً فى علم الكلام، والعلوم الطبيعية، كما كان إماماً فى العلوم العقلية وعلوم اللغة، وشُدّت الرحال إليه لتلقى العلم على يديه من مختلف الأقطار.

وصار فلتة زمانه فى الوعظ باللسانين العربى ، والفارسى القديم، وربما لحقه الوجد وهو يعظ فيكثر البكاء .

مؤلفاته :

خلّف الرازى مجموعة من المصنفات كتب لها القبول وتناولتها أيدى الطلاب بالبحث والدراسة إلى يومنا هذا فى مختلف الفنون وأهمها :

١ - البيان والبرهان فى الرد على أهل الزيغ والطغيان .

٢- المطالب العالية فى علم الكلام.

٣- المحصول فى أصول الفقه.

٤ - الملخص فى الحكمة.

٥- السر المكنون فى الطلسمات.

٦- شرح الإشارات لابن سينا.

٧- شرح الحكمة لابن سينا.

٨- شرح الوجيز فى الفقه للغزالى .

٩- شرح المفصل فى النحو للزمخشرى.

ثم : مفاتيح الغيب فى التفسير ويسمى أيضاً « التفسير الكبير».

منهج الفخر الرازى فى تفسيره

يقع « مفاتيح الغيب» فى ثمانية عشر مجلدا. وهناك خلاف على أن الفخر الرازى أتم تفسير القرآن كله أو أن الذى أكمله هو: نجم الدين القمولى المتوفى سنة ٨٢٨هـ أو شهاب الدين الخوبى المتوفى سنة ٦٣٩هـ.

وأياً ما كان فإن الفخر الرازى ترك لنا ذخيرة فى تفسير كتاب الله العزيز على منهج المفسرين بالرأى المحمود حظىَ بشهرة واسعة بين العلماء، لأن الكتاب يمتاز عن غيره بالأبحاث الكثيرة فى نواحٍ شتى من العلوم حتى قال ابن خلكان فى وفيات الأعيان» : « جمع فيه كل غريب وغريبة».

وأهم ما نلاحظه على الإمام فخر الدين الرازى فى منهجه التفسيرى ما يلى :

١- **المناسبات** : يعتبر كتابه أهم تفسير لذكر مناسبات السوّر بعضها لبعض، بل لذكر الآيات بعضها لبعض، وفى كثير من الأحيان يذكر مناسبة آخر الآية والسورة وختمها لأولها، وربما لا يكتفى بذكر مناسبة واحدة بل يعددها. وهو فى هذا أثبت بأن كلام الله - تعالى - على غاية من الترابط والدقة والإحكام وهو ما لا نجده فى تفسير آخر.

٢- **الاهتمام بالعلوم الرياضية والكلامية** : الفخر الرازى ينتهز فرصة تفسير الآيات التى يلمح فيها أية إشارة إلى العلوم الطبيعية والكونية كالفلك، والهيئة، والطب، فيتعرض لمباحثها، ويستطرد فيها بشكل ملفت .

٣- اهتمامه بالرد على المعتزلة والفرق الكلامية : والرازى كَسُنِّى يعتقد ما يعتقده أهل السُّنة لا يترك فرصة من آية قرآنية تتعرض لها المذاهب الكلامية خاصة المعتزلة حتى يفند أقوالهم فيها، ويرد عليها.

أما ذكر أقوالهم فإنه يستطرد فيها استطراداً يأخذ بالألباب حتى أن صاحب المذهب نفسه لا يستطيع أن يقرره مثله.

أما تفنيد أقوالهم والرد عليها فلا يكاد يصل إلى المرتبة السابقة من التقرير ولذلك ظن بعض العلماء فى الفخر الرازى أنه ربما يميل إلى هذه المذاهب لقصوره فى الرد بالنسبة لما برز فيه من التقرير.

لكن الطوفى يرد على ذلك بقوله : « لعل سببه أنه كان يستفرغ قواه فى تقرير دليل الخصم، فإذا انتهى إلى تقرير دليل نفسه لا يبقى عنده شئ من القوى».

٤- إبرازه ووقوفه عند آيات الأحكام : وأيضاً فالفخر الرازى كان شافعى المذهب متمكناً من الدراسات الفقهية، فكان إذا وقف عند آية من آيات الأحكام فنّدها تفنيداً جيداً وانتصر لمذهب الشافعى انتصاراً ظاهراً.

٥- ترتيب المسائل : وأبرز ما فى منهج الرازى أيضاً أنه كان يورد الآية الكريمة ثم يذكر عدد ما يمكن أن يكون فيها من مسائل فيقول هذه الآية فيها سبع مسائل: الأولى : كذا وكذا، والثانية: كذا وكذا.

ولعل القرطبى تأثر بهذه الطريقة الجيدة فى الترتيب والتنسيق .

٦- ذكر اللغة والقراءات وأسباب النزول : ولا شك أن الرازى لم يفته فى منهجه الاعتماد على ما اعتمد عليه غالب المفسرين فى مناهجهم كالاهتمام بذكر أسباب النزول، والقراءات، واللغة، والاستدلال بالشعر على مفردات القرآن الكريم.

ولك الآن أن تنظر فى « مفاتيح الغيب» . لتكتشف بنفسك ما عرضناه عليك إجمالاً من بعض مناهجه، ولتبحث أنت بنفسك أيضاً عما عساه نكون قد غفلنا عنه.

نموذج من التفسير بالرأى المذموم

الزمخشري وكتابه « الكشاف »

توطئة : ابتليت الأمة الإسلامية بالفرقة والاختلاف منذ استشهاد الخليفة الثالث عثمان بن عفان - رضى الله عنه - فألبسها الله شيعًا، وجعلها فرقًا، وأذاق هذه الفرق بعضها بأس بعض، فكانت كما أخبر المصطفى ﷺ: «وستفترق هذه الأمة ثلاثًا وسبعين فرقة كلها في النار إلا ما كان عليه أنا وأصحابي».

هذا: وقد تناولت كل فرقة من هذه الفرق كتاب الله - عز وجل - تفسره بما ارتضته لنفسها من اعتدال أو تطرف، فظهرت كتب تفاسير الفرق العقائدية كأنها المرايا التى تنعكس عليها صور المفسرين لها على اختلاف مذاهبهم وتباين منازعهم، ولا غرْوَ فكل إناء ينضح بما فيه[1] .

والذى اشتهر من هذه الفرق وعظم أمره خمس فرق وهم:

١ - أهل السنة. ٢ - المعتزلة. ٣ - المرجئة. ٤ - الشيعة. ٥ - الخوارج.

وقد تناولنا نماذج من تفاسير أهل السنة سواء كان بالمأثور أو بالرأى الراجح فيما سبق أن قدمناه بين يديك وهى تفاسير ابن جرير الطبرى، والفخر الرازى والقرطبى. وهذه كلها من تفاسير أهل السّنة وإن كانت فى ألوان مختلفة.

أما الآن فنعرض لتفاسير «الفرق العقائدية» وقد اخترنا فرقة «المعتزلة»، واخترنا كتاب «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل» لجاد الله الزمخشرى.

---

(١) مناهل العرفان ١/ ٦٩ .

أما المعتزلة : فكان أول ظهورهم ونشأتهم فى الدولة الأموية على يد «واصل بن عطاء» المتوفى سنة ١٣١هـ وكان أول أمره تلميذًا للحسن البصرى، وهو الذى سمّاه معتزليًا عندما بدأ يجيب عن الحسن البصرى فى مسائل يتكلم منها بالعقل المجرد الذى ترفضه الناس عن مرتكب الكبيرة أنه «فى منزلة بين المنزلتين».

ومن هنا قال الحسن البصرى لواصل: «اعتزلنا واصل» فصارت علمًا على هذا المذهب، وبدأوا يتكلمون فى مسائل كثيرة كالقضاء والقدر وغيرهما ثم ما لبث أن استقر مذهبهم على أصول خمسة هى:

١ ـ التوحيد : وهو لُبُّ مذهبهم، تأثروا فيه بالإباضية، وهم أول من قالوا به، وبنوا عليه رأيهم القائل: باستحالة رؤية الله ـ سبحانه وتعالى ـ يوم القيامة، وأن الصفات ليست شيئًا غير الذات.

٢ ـ العدل : وهو قائم عندهم على أساس أن الله تعالى لم ينشأ جميع الكائنات ولا خلقها ولا هو قادر عليها، لأن أفعال العباد لم يخلقها الله تعالى. لا خيرها ولا شرها، ولم يرد إلا ما أراد الله به شرعًا، وما سوى ذلك فإنه يكون بغير مشيئته.

٣ ـ الوعد والوعيد: فمعناه أن الله يجازى من أحسن بالإحسان، ومن أساء بالسوء لا يغفر لمرتكب الكبيرة ما لم يتب ولا يقبل فى أهل الكبائر شفاعة ولا يخرج أحدًا منهم من النار.

٤ ـ المنزلة بين المنزلتين : وهو أن مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن مطلقًا ولا كافر مطلقًا.

٥ ـ وأما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقد قالوا: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يكون بالقلب إن كفى، وباللسان إن لم يكف القلب، وباليد إن لم يغنيا، وبالسيف إن لم تكف اليد.

ومعلوم أن مذهب أهل السنة والجماعة لا يتفق مع مذهب المعتزلة فى القول بهذه الأصول. والمعتزلة ينكرون الأحاديث الصحيحة إذا عارضت مذهبهم. يقولون بأن كل محاولاتهم فى التفسير مرادة لله تعالى. كما يعتمدون اعتماداً قويًا على اللُّغة فى إثبات ما يذهبون إليه من هذه الأصول.

كما يتذرعون بالفروض المجازية إذا بدا لهم ظاهر القرآن غريبًا.

الزمخشرى وكتابه :

كان الزمخشرى عالمًا عبقريًا فذًا فى علوم النحو، واللغة، والأدب، والتفسير، ويشهد لآرائه فى العربية علماء الأندلس. والزمخشرى معتزلى الاعتقاد، حنفى المذهب، ألف كتابه الكشاف فى التفسير ليدعم به حقيقته ومذهبه. واعتزاليات الزمخشرى فى تفسيره دليل على حذقه ومهارته.

قيمة الكشاف العلمية :

بصرف النظر عما فى الكشاف من الاعتزال، فإن هذا الكتاب يعد بحق قيمة علمية فريدة لم يسبق مؤلفه إليه لما أبان فيه عن وجوه الإعجاز فى غير ما آية من القرآن، ولما أظهر فيه من جمال النظم القرآنى وبلاغته، وليس مثل الزمخشرى من يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن وسحر لغته لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم، لا سيما لغة العرب، وأشعارهم والإحاطة بعلوم البلاغة والبيان، والإعراب، والأدب ولقد أضفى هذا النبوغ العلمى والأدبى على تفسير الكشاف ثوبًا جميلاً لفت إليه أنظار العلماء[1] .

ومهما قيل فى وصف الكشاف وإطرائه من ناحية إثباته لإعجاز القرآن فإن ما فى الكتاب من اعتزال جعل كثيراً من أقلام العلماء تنال منه وتضعه فى هذا

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ٤٠٧ .

الموضع الذي هو فيه وهو أنه منضوٍ تحت مسمى «تفسير الفرق المبتدعة» أو التفسير بالرأي المذموم.

ويمتاز كتاب الزمخشري «الكشاف» بأمور منها:

* خلوه من الحشو والتطويل.
* سلامته من القصص والإسرائيليات.
* عنايته بعلوم البلاغة.
* اعتماده على لغة العرب.
* بجعل مسائله على طريقة السؤال والجواب.

* * *

مبحث في: التفسير الفقهي
«الجامع لأحكام القرآن للقرطبي»

توطئة: كما كان التفسير نطفة في ظهر علم الحديث لم تشب عن الطوق إلا بعد معرفة الأمة للتدوين.

ولقد سبق أن قلنا بأنه لما عرف الناس التدوين عرفوا التبويب فاستقل علم التفسير عن علم الحديث وبدا يستقل بنفسه في كتب ودواوين كان من أهمها كتب التفسير بالمأثور المنقول عن الأجيال الثلاثة الأولى، فاستقر علم «التفسير العام» وكان تفسيرًا «موسوعيًا» يشمل جميع أنواع التفسير وألوانه التي يعرفها المعاصرون في زماننا على سبيل الاستقلال: كتفسير المبهمات، وتفسير المتشابهات، ومعرفة الناسخ والمنسوخ؛ أو ما أطلق عليها: «التفاسير المتخصصة».

فإن هذه التفاسير المتخصصة كانت هي الأخرى «أجنة» في ظهر علم «التفسير العام» فما لبث الباحثون أن نقبوا على هذه التفاسير في فنونها المختلفة حتى أخرجوها عن التفسير العام وأفردوا لها مؤلفات على سبيل الاستقلال. من هذه الألوان المختلفة يبرز لنا: التفسير الفقهي. أو: تفسير آيات الأحكام.

لمحة تاريخية سريعة: ولا شك أن النبي ﷺ كان معنيًا بطبيعة الحال حين كانت تنزل آية من آيات الأحكام أن يبينها للناس ويشرح ما فيها من أحكام شرعية. ثم جاء جيل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بعدما قُبض رسول الله ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى، فكانوا يقرءون القرآن، فما فهموه بسليقتهم بحسب معطيات لغتهم التي يملكونها وميراثهم من النبي ﷺ كانوا يفسرونه ويشيعونه للناس. وربما استجدت وقائع وأحداث على الأمة الإسلامية فتكلموا فيها واستنبطوا لها من آيات القرآن الكريم أدلة يستندون إليها.

ومن هنا كان الخلاف طبيعيًا حول تفسير الآية التي تحتمل ألفاظها هذا الخلاف. وإن بدت في ذلك الوقت نادرة الحدوث من ناحية، ومن ناحية أخرى لم تكن خلافًا بالمعنى الفني الذي يفسد للصحبة ودًا، بل كثيرًا ما كان أحدهما يتنازل للآخر عما فهمه ويرجع إلى قول صاحبه.

حتى خلف من بعدهم أجيال برزت فيها حركة فقهية نشطة نتيجة سياحة المسلمين من السلف في بلاد المسلمين ورؤيتهم لوقائع لم يعتادوها، فظهر الأئمة المجتهدون كأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل - يرحم الله الجميع. وما لبث أن وضع كل إمام قواعد كلية يستند عليها في صحة استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية في الكتاب والسنة. وبدت تظهر الكتب التفسيرية لآيات الله - تعالى - طبقًا للحلال والحرام، أو ما عرف بآيات الأحكام، فظهرت طبقًا لظهور هذه المذاهب تاريخيًا. ولعل أقدم كتاب في تفسير آيات الأحكام هو:

١ - «الدراية وكنز العناية ومنتهى الغاية وبلوغ الكفاية في تفسير خمسمائة آية» في تفسير آيات الأحكام على مذهب الإباضية. والكتاب لأبي الحواري: محمد بن الحواري العماني الإباضي، توفي أول القرن الرابع الهجري.

٢ - ثم في فقه الحنفية: «أحكام القرآن» للجصاص.

٣ - ثم في فقه الشافعية:

أ - كتاب: «أحكام القرآن للإمام الشافعي» .

ب - كتاب: «أحكام القرآن: للكيا الهراسي .

٤ - وفي فقه المالكية:

أ - كتاب أحكام القرآن لابن العربي.

ب ـ كتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

٥ ـ ثم في فقه الشيعة الإمامية:

كتاب: العرفان في فقه القرآن: لمقداد السيوري من الإمامية الإثنا عشرية.

٦ ـ وفي فقه الزيدية: الثمرات اليانعة، والأحكام الواضحة القاطعة: ليوسف الثالثي الزيدي[٥].

القرطبي وكتابه
الجامع لأحكام القرآن الكريم

التعريف به: هو: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح. أيضًا أصوله عربية كالفخر الرازي: فهو من خزرج الأنصار. ظهر جدوده في الأندلس، وفي قرطبة على وجه التحديد فنسب إليها واشتهر بها فقيل: القرطبي.

كان رحمه الله تعالى: من عباد الله الصالحين، والعلماء العاملين العارفين بالله تعالى، الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة. وبلغ من زهده أن ترك التكلف، وصار يمشي بثوب، وعلى رأسه طاقية. وكانت أوقاته كلها بين العبادة، والتصنيف حتى أخرج للناس كتبًا انتفعوا بها واستفادوا منها، وأهمها ما يلي:

مصنفاته:

١ ـ كتاب قمع الحرص بالزهد والقناعة، وردُّ ذُل السؤال بالكتب والشفاعة.

٢ ـ كتاب التذكار في أفضل الأذكار.

٣ ـ شرح أسماء الله الحسنى.

٤ ـ شرح التقصي.

٥ ـ كتاب التذكرة بأمور الآخرة.

٦ ـ الجامع لأحكام القرآن.

شيوخه:

رحل القرطبي إلى مصر، واستقر بمدينة «منية ابن خصيب محافظة المنيا حاليًا في صعيد مصر، ومات بها سنة ٦٧١هـ. سمع من الشيخ أبي العباس بن عمر القرطبي مؤلف: «المفهم في شرح صحيح مسلم».

منهج القرطبي في تفسيره

كتاب «الجامع لأحكام القرآن» كتاب جامع لأحكام القرآن الكريم حقيقة، حيث استوعب الكتاب جميع أنواع آيات الأحكام في الحلال والحرام. ويقع الكتاب في عشرين مجلدًا شمل تفسير كل القرآن الكريم بصفة عامة ووقف على آيات الأحكام بصفة خاصة. يهتم الإمام القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ في منهجه في هذا الكتاب بما يلي:

يعلق تعليقات وجيزة تتناول نكات من التفسير في:

١ ـ اللغة .　　　٢ ـ والإعراب .　　　٣ ـ القراءات .

يرد على أهل البدع والريب والزيغ والضلالات. ويستدل بأحاديث كثيرة تشهد لما يذكره من الأحكام، ونزول الآيات جامعًا بين معانيها، ومبينًا ما أشكل منها بأقاويل السلف ومن تبعهم من الخلف.

يقول الإمام القرطبي في تحديد منهجه هذا: «وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله». وكثيرًا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهمًا لا يعرف

من خرجه إلا من اضطلع على كتب الحديث فيبقى مَنْ لا خبرة له بذلك حائرًا، لا يعرف الصحيح من السقيم. وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين إلا ما لابد منه، وما لا غنى عنه للتبيين. واعتنت من ذلك تبيين آيات الأحكام بمسائل تفسر عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها فضمنت كل آية تتضمن حكمًا أو حكمين فما زاد مسائل أبين فيها ما تحتوى عليه من أسباب النزول، وتفسير الغريب، والحكم. فإن لم تتضمن حكمًا ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل».

عدم التعصب: يمتاز القرطبي بميزة فريدة فهو رغم أنه «مالكى المذهب» إلا أننا لا نجد أي بادرة من بوادر العصبية المذهبية، بل كثيرًا ما ينقل عن ابن العربى الذى يتناول المذاهب الأخرى خاصة الحنفية بلسانه، وربما عاب عليه القرطبى وانتقده في ذلك. والقرطبى يحمله الإنصاف إلى حدّ الدفاع عمن يهاجمهم ابن العربى من المخالفين مع توجيه اللوم إليه أحيانًا.

وأيًا ما كان فإن العلامة القرطبى كان مفسرًا نزيهًا، عفّ اللسان، دفاعًا عن أصحاب الآراء الأخرى بصرف النظر عن كونهم من المخالفين[1] .

* * *

(١) الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون : ص ٣١٧ وما بعدها ، التفسير والمفسرون جـ ٢/ ٤٣٧ وما بعدها ، مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ٣٨٠ وما بعدها .

الباب الثانى

علم نزول القرآن الكريم



الباب الثانى

علم نزول القرآن الكريم

مبحث فى : وقت نزول القرآن ، ومدته ، وكيفيته ، وحكمة تنجيمه

اختلف الباحثون فى علوم القرآن فى وقت نزول القرآن الكريم، وفى المدة التى نزل فيها .

ويرجع سبب الخلاف فى وقت النزول إلى أن القرآن الكريم نفسه ذكر ثلاث آيات انتظمت وقت النزول وهى :

١- قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة﴾ سورة الدخان - الآية ٣.

٢- قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ سورة القدر- الآية الأولى.

٣- قوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ سورة البقرة الآية ١٨٤ .

ففى أى وقت نزل : أفى الليلة المباركة ؟

أو فى ليلة القدر ؟

أو فى شهر رمضان ؟

اتفق المفسرون على أن هذه الآيات يفسر بعضها بعضاً، فقد نزل فى الليلة المباركة التى هى ليلة القدر التى هى فى شهر رمضان.

ولكنهم اختلفوا بعد ذلك فى مدة النزول، وكيفيته على ثلاثة أقوال :

(١) قال الجمهور : نزل القرآن الكريم جملة واحدة إلى بيت العزة فى السماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك مُنَجَّماً على محمد ﷺ على مدى ثلاث وعشرين سنة.

١- واستدلوا لذلك بما رواه البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنهما- قال:

« بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه. أُمرَ بالهجرة عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة».

٢- وما رواه البيهقي والحاكم عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أيضا قال:

« أنزل القرآن في ليلة القدر في شهر رمضـان إلى سماء الدنيا جملة واحدة ثم أنزل نجوماً.

(٢) القول الثـاني : أن ابتداء نزول القـرآن الكريم كان في الليلة المبـاركة وهي ليلة القدر من شهر رمضان ثم تتابع نزوله بعد ذلك مفرقا على الوقائع والأحداث في ثلاث وعـشرين سنة أي أن القـرآن نزل ابتداء منجـماً مـفرقًـا فليس له إلا هذا النزول فقط .

وهذا قول الشعبي - يرحمه الله تعالى :

واستـدل لقوله بقـول الله تعالى : ﴿ وقال الذين كـفروا لولا نُزِّل عليـه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك﴾ (١).

(٣) القـول الثـالـث : أن القـرآن الكريـم أُنـزل إلى السـمـاء الدنـيـا في ثلاث وعشرين ليلة قـدر أو عشرين ، أو خمس وعشرين، في كل ليلة قـدر منها مايقدر الله أنزاله طول السـنة .

ومعنى هذا الرأى أن القرآن الكريم كان ينزل إلى السماء الدنيا مفرقاً على سني الدعوة، ثم ينزل ما خُصَّ به السنة كلها منجـماً على وقائع هذه السنة على رسول الله ﷺ .

وهذا مذهـب بعض المفسرين منهم فخر الدين الرازي .

كما اختلفوا في عدد سني الدعوة التي نزل فيها القرآن الكريم على ثلاثة أقوال أيضا:

الأول : أنها ثلاث وعشرون سـنة: ثلاث عشرة في مكة، وعشر في المدينة.

الثاني : أنها خمس وعشرون سنة: خمس عشرة في مكة، وعشر في المدينة.

---

(١) الفرقان : ٣٢ .

الثالث : أنها عشرون سنة : عشر في مكة، وعشر في المدينة.

وهذا الرأي الأخير هو ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن الضحاك عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال :

« نزل القرآن جملة واحدة من عند الله من اللوح المحفوظ إلى السَّفَرَة الكرام البررة الكاتبين في السماء الدنيا، فنجَّمته السَّفَرة على جبريل عشرين ليلة، ونجَّمه جبريل على النبي ﷺ عشرين سنة».

وقد حقق ابن حجر في « فتح الباري» .صحة رأي الجمهور القائل بأن القرآن نزل أولاً جملة واحدة إلى السماء الأولى في بيت العزة، ثم نزل بعد ذلك منجَّما على الوقائع في ثلاث وعشرين سنة.

أولاً : لصحة الأخبار الواردة في ذلك، وضعف غيرها.

ثانياً : تفخيم أمره وأمر مَنْ نزل عليه كما نقل ذلك السيوطي عن أبي شامة.

ثالثاً : بيان حظ هذه الأمة من أن الله تعالى أرسل إليهم محمداً ﷺ رحمة، وأنزل القرآن إلى بيت العزة ليدخل في حدِّ الدنيا، وجاء جبريل بالرسالة والوحي كأنه تعالى أراد أن يسلم هذه الرحمة من الله تعالى إلى هذه الدنيا، نقل ذلك السيوطي عن الحكيم الترمذي .

مبحث في : كيفية إنزال القرآن الكريم

مجمل ما ذكره المحررون في علوم القرآن كبدر الدين الزركشي، وجلال الدين السيوطي أن القرآن الكريم أنزل على محمد ﷺ بلسان عربي مبين لفظاً ومعنى، منجَّماً مفرقاً على حسب الحوادث والوقائع فيما يخص الحوادث والوقائع أو ابتداء فيما يتعلق بالأخبار والقصص وذلك لقطعية النصوص الواردة في هذا سواء من الكتاب أم من السنّة الصحيحة.

فأما الكتاب فمنه:

١- قوله تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾[1].

٢- ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ [2].

وأما السنة فمنها:

١- مارواه البيهقي في شعب الإيمان عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال:

« أنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والانجيل لثلاث عشرة، خلت منه، والزبور لثماني عشرة خلت منه، والقرآن لأربع وعشرين خلت منه».

٢- ما رواه البخاري عن عائشة – رضي الله عنها – قالت :

« إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شئ: « لا تشربوا الخمر» لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: « لا تزنوا» لقالوا: لا نَدَع الزنا أبداً».

٣- ما أخرجه ابن عساكر – عن أبي نضرة – قال :

« كان أبو سعيد الخدري – رضي الله عنه – يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة، وخمس آيات بالعشي، ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات.

٤- ما أخرجه ابن أشتة في كتاب « المصاحف» . عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿ بمواقع النجوم ﴾: قال :

« أنزل الله القرآن نجوماً ثلاث آيات، وأربع آيات، وخمس آيات».

مبحث في: حكمة تنجيم القرآن الكريم

لإنزال القرآن الكريم منجماً مفرقا على سِنِي الدعوة على مدى ثلاث وعشرين سنة حكماً كثيرة، وأسباباً متعددة، وبواعث هامة أفاض فيها علماء الأمة الأول

---

(١) الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥ .

(٢) البقرة : ٩٧ .

المتكلمون في القرآن وعلومه: كابن أبي حاتم، وابن أشتة، وأبي شامة، والسبكي، والزركشي، والسيوطي.

ومن الباحثين المعاصرين : صبحي الصالح، ومناع القطان وكثيرون غيرهما أجملوا هذه الحكم- كما لك أنت- أن تستنبط غيرها وأهمها ما يلي :

(١) تثبيت فؤاد النبي ﷺ .

وهو ما ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ﴾.

أي كذلك أنزلناه منجماً وليس جملة واحدة بغرض تثبيت فؤادك.

قال ابن شامة في «الوجيز إلى علوم تتعلق بالقرآن العزيز» :

أي : لنقوي به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب وأشد عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه، وتجدد العهد به، وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبادة، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقياه جبريل».

(٢) التحدي والإعجاز :

ذلك أن لكل نبيٍ معجزة، وكانت معجزات الأنبياء السابقين مسوقة بحسب مهارة أقوامهم في فنٍ يعجز عنه فيه سواهم، فتأتي المعجزة على يد نبيهم المرسل إليهم لتدحض مهارتهم، وتعجز فنهم.

فأعطى موسى - عليه السلام - قوة فوق مهارة السحرة التي كانت مفخرة علماء فرعون وأعطى عيسى قوة فوق مهارة الطب التي كانت مفخرة بني إسرائيل.... هكذا.

فلما بعث محمد ﷺ في قوم جُلّ فخرهم الفصاحة والبلاغة أعطى القرآن الكريم تحدياً لبلاغتهم وإعجازاً لهم أن يأتوا بمثله، أو بنصفه، أو بعشر سور منه، أو بآية واحدة.

والقصد من الإعجاز ليس في مجرد الألفاظ ودقة ترتيبها، وبراعة نظمها، ولكن فيما وراء كل حرف من حروف القرآن من الدلالة على معانٍ خفية لا يحيط بها إلا الخالق فيضع الحرف للدلالة على هذا المعنى الخفي الذي لا يعرفه المخلوق.

يقول الله جل شأنه ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾[1].

ولا شك أن نزوله منجما مفرقا بضع آيات، أو حتى جزء آية على مدى هذا الزمن الذي امتد ثلاثا وعشرين سنة أبلغ في التحدي، وأوقع لثبوت الإعجاز خاصة فيما كان مشركو مكة، ويهود المدينة يسوقونه للنبي ﷺ من أسئلة التحدي بين الحين والآخر ظنًا منهم توقيفه وقطعه عن الجواب ، فيأتي التنجيم هنا في مكانه المناسب في وقته المناسب.

يقول الله تعالى : ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾[2].

(٣) التدرج في التشريع :

ذلك أن النبي ﷺ بعث على رأس أمة استفحلت فيها عادات مرذولة متمكنة في نفوسهم، ملوثة لعقولهم، راسخة في وجدانهم، ممتزجة بدمائهم كالإعتقاد الجازم بألوهية الأوثان، وعقرهم للخمر بحيث صارت جل دمائهم التي تسير قلوبهم وعقولهم منها.

فلا يعقل في تدبير الحكماء أن تنزل هذه الأشياء وأمثالها دفعة واحدة. بل تحتاج إلى التدرج بالعلاج شيئاً فشيئاً.

وهذا معنى كلام أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها- الذي أوردناه سابقاً:

« إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب

---

(١) البقرة : ٢٣-٢٤.

(٢) الفرقان : ٣٣.

الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شئ لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً» أخرجه البخاري.

هذه الثلاثة أهم أسباب تنجيم القرآن الكريم، وللطالب أن يستنبط من ذلك الشئ الكثير مثل : تيسير الحفظ والفهم، والاستفادة منه في أصول التربية وذكر تواريخ الأمم ومجاهدة الأنبياء، وقصصهم مع أقوامهم، ومناسبة كل منها لحوادث مشابهة لنبينا محمد ﷺ، وللدلالة على أن القرآن الكريم مع طول زمن تنزيله لا ينفك عن حقيقة جزئية، ولا يتفلت من حكمة، ولا يقع فيه خلط ولا اختلاف.

١- ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[1] .

٢- ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾[2].

* * *

(١) النساء : ٨٢.

(٢) الإسراء : ٨٨.



الباب الثالث

علم أسباب النزول



الباب الثالث

علم أسباب النزول

نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ منذ أخبره الوحي أن «اقرأ» وكانت هذه أول الآيات حتى ختمت بقوله تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم﴾.

وما بين أول الآيات وآخرها نزولاً توالى القرآن على مدى ثلاث وعشرين سنة يتنزل به الوحي وكان بشأن نزوله لا يخرج عن قسمين :

الأول : قسم أنزله الله ابتداءً غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، وإنما كما يقول الزرقاني في « مناهل العرفان». إنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق [١]. وهذا القسم هو غالب آيات القرآن الكريم.

الثاني : قسم أنزله الله تعالى لسبب من الأسباب الخاصة كحادثة الإفك، وظهار أوس بن الصامت من زوجته خولة بنت ثعلبة ومجادلتها للنبي ﷺ وكأخذ النبي ﷺ للأسرى وعتاب الله تعالى له﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ [٢] وغيرها .

وهذا القسم هو المعني بهذه المحاضرة، وفيه كتب العلماء بحوثهم، وألفوا الكتب لبيان أسباب النزول، وحصر الآيات التي نزل القرآن بسببها، وبيان فائدته، وطريق معرفته، ومصادره، وصيغه الواردة به، والعمل به عند تعارض الروايات،وهذا ما سنلقي عليه ضوءاً كافياً فيما يلي : —

مبحث في : التعريف بعلم أسباب النزول وفوائد معرفته

يمكن حصر ماهية هذا العلم بالقول أنه :

« العلم الذي يختص بمعرفة ما لبعض آي القرآن الكريم من سبب نزلت بشأنه، أو سؤال وقعت الآية جواباً عنه في زمن نزول الوحي» .

---

(١) مناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ١/١٠٦ .

(٢) الأنفال : ٦٧ .

علم أسباب النزول يتصل اتصالاً وثيقاً بعلم التفسير حتى قال ابن تيمية فيما نقله السيوطي عنه في « الإتقان»: معرفة سبب النزول تعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب» (١).

كما نقل عن ابن دقيق العيد: «بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن» (٢).

فها هو ذا جلال الدين السيوطي يورد هذه المزاعم، ويرد عليها مبيناً فوائد هذا العلم.

ومن المستحسن أن ننقل فوائد علم أسباب النزول عن السيوطي باعتباره مصدراً أصلياً قديماً، يقول السيوطي (٣).

« زعم زاعم أنه لا طائل تحت هذا الفن لجريانه مجرى التاريخ، وأخطأ في ذلك بل له فوائد:

١- منها : معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

٢- ومنها : تخصيص الحكم بسبب النزول عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب.

٣- ومنها: أن اللفظ قد يكون عاماً، ويقوم الدليل على تخصصه، فإذا عرف السبب قصر التخصيص على ما عدا صورته، فإن دخول صورة السبب قطعي وإخراجها بالاجتهاد ممنوع، كما حكى الإجماع عليه، ولا عبرة بمن شذ فجوز ذلك.

٤- ومنها : الوقوف على المعنى، وإزالة الإشكال، قال الواحدي:

« لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها» (٤).

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ١/ ٨٣ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الإتقان ١/ ٨٢ ـ ٨٣ ببعض التصرف .

(٤) الإتقان للسيوطي ١/ ٨٤ .

مثاله : ما أشكل على مروان بن الحكم في قوله تعالى : ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾ فقال: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعون، فبين له ابن عباس أن الآية إنما نزلت في أهل الكتاب - خاصة- حين سألهم النبي ﷺ عن شئ فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، وأروه أنهم بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، فأنزل الله فيهم ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلاً فبئس ما يشترون لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا﴾ الآية.

٥- ومنها : دفع توهم الحصر، قال الشافعي ما معناه في قوله تعالى ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرمًا على طاعم يطعمه﴾ الآية. إن الكفار لما أحلوا ما حرّم الله، وحرموا ما أحل الله، وكانوا على المضادة والمحادة، فجاءت الآية مناقضة لغرضهم، فكأنه قال لا حلال إلا ما حرمتموه، ولا حرام إلا ما أحللتموه نازلاً منزلة مَنْ يقول: لا تأكل اليوم حلاوة فتقول : لا أكل اليوم إلا الحلاوة، والغرض المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة فكأنه تعالى قال : لا حرام إلا ما أحللتموه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، ولم يقصد حل ماوراءه، إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل »[1].

٦- ومنها : معرفة اسم النازل فيه الآية، وتغيير المبهم فيها لأن بيان المبهم وزوال إبهامه مشيد لردة الفضل إلى أهله كما في قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ نزلت في الصحابي الجليل صهيب ابن سنان الرومي. وللمتمعن أن يستنبط ما يشاء من الفوائد.

---

(١) الإتقان للسيوطي ١/ ٨٤.

مبحث فى: طرق معرفة أسباب النزول، ومصادره، وصيغته

إن مصادر علم أسباب النزول وطريق معرفته تتمثل فى :

النقل الصحيح عن مشاهدى الوحى، ومعايني التنزيل ، وهذا النقل له مصدران:

(أ) أن يكون الراوى صحابياً، فإذا كان كذلك كان سبب النزول مقبولاً لأن رواية الصحابى المعاين للتنزيل له حكم المرفوع إلى النبى ﷺ.

(ب) إذا جاءت الرواية مرسلة عن الصحابى (أى سقط منها الصحابى) فلا تقبل هذه الرواية إلا إذا قويت واعتضدت برواية أخرى ولو مرسلة.

وعلى هذا الأساس فلا مجال للأخذ بالاجتهاد والنظر فى هذا العلم وإنما مصدره الأساسى هو النقل المحرر عن الصحابة والتابعين.

صيغ أسباب النزول

للتعبير عن سبب النزول صيغتان :

الأول : أن يقول الصحابى :

١- سبب نزول هذه الآية كذا.

٢- حدث كذا - أو سئل عليه الصلاة والسلام عن كذا فنزلت آية كذا فهذه الصيغة بشقيها نص صريح واضح فى سبب النزول.

الثانية : أن يقول الصحابى : « نزلت الآية فى كذا» فمعناه أن الآية هذه تتضمن هذا الحكم وليس هذا سبب نزولها.

والمعول عليه فى هذه الصيغة هو القرائن الدالة على السبب.

مبحث فى: تعارض الروايات فى سبب النزول

يرجع تعارض الروايات فى سبب النزول إلى تعددها وهو نوعان :

الأول : تعدد الروايات فى سبب نزول آية واحدة.

الثاني : تعدد الآيات فى سبب نزول واحد.

أمـا الأول: وهو تعـدد الروايات فى سـبب نزول آية واحـدة؛ وهذه لهـا ثلاث صور :

(١) الصورة الأولى : أن تكون الروايات الواردة فى سبب نزول الآية الواحدة كلها بصيغ غير صريحة فى سبب النزول كأن يقول كل راوٍ: « نزلت هذه الآية فى كذا» أو « أحسبها نزلت فى كذا» .

فهذه الصورة لا تعارض فيها، لأن المراد بهـا التفسير وليس ذكر سبب النزول. إلا فى حالة واحدة: وهى ما إذا قامت قرينة على أحد هذه الأسباب بأنه فى سبب النزول فحينئذ تتعين هذه الرواية من بين أخواتها لأن تتقدم على الأخريات .

(٢) الصـورة الثانيـة : أن تكون الروايات المتـعـددة فى سبب نزول آية واحـدة بعضها صريح الصيغة فى الدلالة على سبب النزول، وبعضها غير صريح، فحينئذ يتعين تقديم الرواية المصرحة بسبب النزول على غيرها.

ومـثـال ذلك قـول الله تعـالى : ﴿ نسـاؤكم حـرث لكم فـأتوا حـرثكم أنّى شئتم﴾ (١).

فقد تعـددت الروايات فى سبب نزولها بعضهـا مصرح بسببه كـحديث جابر- رضى الله عنه- قال: « كـانت اليهود تقـول: إذا أتى الرجل امرأته من خلفـها فى قبلها جاء الولد أحول، فنزلت ﴿ نسـاؤكم حرث لكم﴾ (٢).

وبعضهـا غير مصـرح به كما جاء عن نافع قال : « قـرأت ذات يوم ﴿ نساؤكم حرث لكم﴾ فـقـال ابن عمر: أتدرى فـيم أنزلت هذه الآية؟ قلت: لا، قال: نزلت فى إتيان النسـاء فى أدبارهن ».

فهذه الصيغة من ابن عمر غير صريحة فى السببية، فتقدم رواية جابر لصراحتها بأسباب النزول.

---

(١) البقرة : ٢٢٣.
(٢) أسباب النزول للواحدى ص ٦٢.

(٣) الصورة الثالثة : أن تكون جميع الروايات الواردة فى سبب نزول الآية الواحدة كلها صريحة فى الدلالة على سبب نزول هذه الآية.

وهذه الصورة يتفرع عنها عدة صور منها :

١- أن تكون هذه الروايات المصرح بسبب نزولها أحدها صحيح دون الآخر وفى هذه الحالة يقدم الصحيح دونه.

ويمثل السيوطى بحديث جندب البجلى يرويه البخارى عنه قال :

أ- «اشتكي النبى ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثا، فأتته امرأة فقالت : يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، لم يقربك ليلتين أو ثلاثا، فأنزل الله : ﴿ والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ﴾ (١).

ب- وأخرجه الطبرانى بسنده: « أن جرواً دخل بيت النبى ﷺ فدخل تحت السرير، فمات، فمكث النبى ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحى، فقال: ياخولة، ماحدث فى بيت رسول الله ﷺ؟ جبريل لا يأتينى فقلت فى نفسى : لو هيأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير، فأخرجت الجرو، فجاء النبى ﷺ ترعد لحيته، وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة، فأنزل الله ﴿ والضحى﴾ إلى قوله ﴿ فترضى).

*قال ابن حجر فى شرح البخارى: « قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة لكن كونها سبب نزول الآية غريب، وفى إسناده من لا يعرف، فالمعتمد ما فى الصحيحين . (٢)

٢- أن تتساوى الروايات فى الصحة،

أ- وفى هذه الحالة يرجح أحد الروايات بكون راويها حاضر القصة مثلاً.

ومثاله : ماذكره السيوطى أيضاً عن ابن مسعود- رضى الله عنه- قال : « كنت

---

(١) سورة الضحى.

(٢) الإتقان للسيوطى ١/ ٩١-٩٢.

أمشى مع النبى ﷺ بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم: لو سألتموه، فقالوا: حدثنا عن الروح، فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه، حتى صعد الوحى، ثم قال : ﴿ قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ (١).

وأخرج الترمذى - وصححه ابن عباس - قال : قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل، فقالوا: اسألوه عن الروح، فسألوه، فأنزل الله ﴿ ويسألونك عن الروح﴾ الآية- فهذا يقتضى أنها نزلت بمكة، والأول خلافه.

وقد رجح بأن مارواه البخارى أصح من غيره، وبأن ابن مسعود كان حاضر القصة (٢).

ب- وقد يحمل الترجيح على أن الآية قد نزلت عقب سببين أو أكثر على أزمان متقاربة .

ومثاله : ما أخرجه البخارى عن عكرمة عن ابن عباس قال :

« إن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى ﷺ بشريك بن سحماء فقال النبى ﷺ: البينة أو حد فى ظهرك، فقال: يارسول الله إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينه؟! فأنزل ﴿ والذين يرمون أزواجهم﴾ حتى بلغ ﴿ إن كان من الصادقين﴾(٣).

وأخرج الشيخان عن سهل بن سعد قال : جاء عويمر إلى عاصم بن عدى فقال: اسأل رسول الله ﷺ: أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فقتله، أيقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ، فعاب السائل، فأخبر عاصم عويمرا، فقال: والله لآتين رسول الله ﷺ، فلأسألنه، فأتاه، فقال: إنه قد أنزل فيك وفى صاحبتك قرآنا ...) الحديث(٤).

---

(١) الإسراء : ٨٥ .

(٢) الإتقان للسيوطى ١/ ٩٤ .

(٣) النور : ٦ .

(٤) الإتقان ١/ ٩٤ .

فهذا مما يجمع بينهما : بأن أول ما وقع له ذلك هلال بن أميه، وصادف مجئ عويمر أيضا. فنزلت الآية بشأنهما. وإلى هذا مال الخطيب فقال: لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد»، وقال ابن حجر: لا مانع من تعدد الأسباب(١).

جـ - فإن لم يمكن الجمع لتباعد الزمن، فإن الترجيح يحمل على تعدد نزول الآية، وتكرره.

ومثاله: ما أخرجه الشيخان عن المسيب قال : « لمَّا حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أمية، فقال : أى عَمِّ قل : لا إله إلا الله، أحاج لك بها عند الله .

فقال أبو جهل ، وعبد الله : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب! فلم يزالا يكلمانه حتى قال : هو على ملة عبد المطلب.

فقال النبى ﷺ : « لأستغفرن لك مالم أُنه عنه» فنزلت ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ الآية (٢).

وأخرج الترمذى - وحسنّه - عن على - كرم الله وجهه -، قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت : تستغفر لأبويك وهما مشركان، فقال استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ . فنزلت .

وأخرج الحاكم وغيره عن ابن مسعود، قال : خرج النبى ﷺ يوماً إلى المقابر، فجلس إلى قبر منها، فناجاه طويلاً، ثم بكى، فقال : إن القبر الذى جلست عنده قبر أمي، وإنى استأذنت ربى فى الدعاء لها فلم يأذن لى، فأنزل علىَّ ما كان للنبى والذين أمنوا أن يستغفروا للمشركين .

وفى هذه الأمثلة، وماهو على حالتها يجمع بين نصوصها بتعدد نزول الآية فيها (٣).

---

(١) الإتقان ١/ ٩٥.   (٢) صحيح مسلم.   (٣) الإتقان فى علوم القرآن ١/ ٩٦.

وأما الثاني : فهو تعدد نزول آيات في سبب واحد.

فقد ينزل في الحادثة الواحدة آيات متعددة في سور شتى.

مثاله : موضوع النساء وذكر الرجال في القرآن دون ذكرهن.

هذا الموضوع المعين كان سبباً في نزول آيات عديدة منها :

١- ما أخرجه ابن جرير وغيره عن أم سلمة - رضي الله عنها- قالت : « يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشئ، فأنزل الله ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾ [(١)].

٢- ما أخرجه ابن جرير أيضا عن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت : « قلت يارسول الله : مالنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟ فلم يرعني منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر وهو يقول (إن المسلمين والمسلمات) إلى آخر الآية.

٣- ما أخرجه الحاكم عن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت : يغزو الرجال ولا تغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث؟ فأنزل الله ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾ [(٢)].

من مفردات هذا العلم الجليل معرفة بعض الجزئيات الآتية التي نذكرها إجمالاً ونحيل تفصيلها إليك في « البرهان للزركشي ١/ ٢٢-٣٥، الإتقان ١/ ٨٢-٩٩» وهي :-

قد يتصل بأسباب النزول ومعرفته معرفة ما يسمى بـ « تقدم نزول الآية على الحكم، وقد مثل لها البغوي بقوله تعالى : ﴿ لا أقسم بهذا البلد وأنت حلٌّ بهذا البلد﴾ ثم ظهر أثر الحِلّ يوم فتح مكة حين قال ﷺ : « أحلت لي ساعة من نهار».

---

(١) آل عمران: ١٩٥ .

(٢) النساء: ٣٢ ، وانظر هذه الأمثلة وغيرها عند السيوطي في الإتقان ١/ ٩٧-٩٨.

قد يتعدد نزول آيات مختلفات في شأن صحابي واحد لتعدد الوقائع بشأنه: كسعد ابن أبي وقاص نزلت فيه أربع منها آثنتان متفرقتان في البقرة، وواحدة في لقمان، وواحدة في الأنفال» [1].

خصوص السبب وعموم الصيغة، أو يقال : عموم اللفظ وخصوص السبب.

فقد يكون السبب خاصاً وتنزل الصيغة عامة، لينبه على أن العبرة بعموم اللفظ. وقد قال الزمخشري مثلاً في تفسير سورة الهمزة: « يجوز أن يكون السبب خاصا والوعيد عاماً ليتناول كل من باشر ذلك القبيح، وليكون جارياً مجرى التعريض بالوارد فيه، فإن ذلك أزجر له ، وأنكى فيه [2].

❊ ❊ ❊

---

(1) البرهان في علوم القرآن ١/ ٣٣-٣٤.

(2) البرهان في علوم القرآن ١/ ٣٣-٣٤ .

الباب الرابع

علم معرفة أول وآخر ما نزل



الباب الرابع

علم معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل

هذا علم جليل من علوم القرآن الكريم له أهميته الخاصة التى تتركز أساساً فيما يلى :

١- معرفة تاريخ التشريع الإلهى الذى نزل به الوحى الكريم على رسول الله ﷺ.

٢- التدرج فى أحكام الله - تعالى- من خلال معرفة هذا العلم بقدر الطاقة ومناسبة كل حكم لما نزل فيه دون تعارض بين مانزل أولاً، وما نزل متأخراً عن الأول.

وقد اهتم الباحثون المتقدمون بإبراز شخصية هذا العلم، وعدُّوه علماً من علوم القرآن. عَدَّه السيوطى [1]- فى الإتقان - النوع السابع من علوم القرآن، بينما عَدَّه الزركشى [2] النوع العاشر، وهذا بحسب اصطلاح كل منهما فى تقسيم العلوم، ولا مشاحة فى الاصطلاح كما قال العلماء.

هذا وقد اختلف العلماء فى تحديد أول مانزل من القرآن الكريم، كما اختلفوا فى تحديد آخر مانزل منه .

سبب الخلاف:

ويرجع سبب هذا الخلاف إلى اختلاف النصوص الواردة فى بيان أول مانزل وبيان آخر مانزل . ذلك أن معرفة هذا الفن لا تتأتى إلا بالنَّص .

وقد اجتهد كثير من الباحثين المعاصرين اجتهاداً مشكوراً مأجوراً إن شاء الله تعالى من أمثال: مناع القطان، وصبحى الصالح ، وغيرهما فى توضيح غرض هذا العلم.

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى : ١/ ٦٨ .

(٢) البرهان فى علوم القرآن للزركشى : ١/ ٢٠٦ .

ولكننا سنسلك هنا طريقاً آخر للبحث حول هذا الموضوع. وإن كانت الطرق كلها تؤدى إلى الغاية المطلوبة التى هى « معرفة هذا الفن» . حيث نسوق النصوص الواردة، والدالة على بيان أول النزول أو آخر النزول بحسب رواية أصحابها ممن شهدوا التنزيل، وعاصروا واقع الوحى من أصحاب رسول الله ﷺ، ثم نفند هذه الروايات لنخرج منها على أصح فهم إن شاء الله- تعالى - على النحو التالى :

عرض الروايات الدالة على أول ما نزل

القول الأول:

١- أخرج الشيخان فى صحيحيهما عن عائشة - رضى الله عنها - قالت :

« أول مابدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيتحنث فى الليالى ذوات العدد، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة- رضى الله عنها- فتزوده لمثلها، حتى فاجأه الحق وهو فى غار حراء، فجاءه الملك فيه، فقال : اقرأ، قال رسول الله ﷺ : فقلت : ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى، فقال : اقرأ، فقلت : ما أنا بقارئ، فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد. ثم أرسلنى، فقال اقرأ، فقلت : ما أنا بقارئ، فغطنى الثالثة، حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى ، فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ حتى بلغ (ما لم يعلم)، فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره ».

٢- وأخرج الحاكم فى « المستدرك» ، والبيهقى فى « دلائل النبوة». عن عائشة- رضى الله عنها قالت :

« أول سورة نزلت من القرآن : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ » ، وصححاه .

٣- وأخرج الطبرانى فى « المعجم الكبير».بسند على شرط الصحيح عن أبى رجاء العطاردي قال :

« كان أبو موسى يقرئنا فيجلسنا حَلَقاً، عليه ثوبان أبيضان، فإذا تلا هذه السورة ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ قال: هذه أول سورة أنزلت على محمد ﷺ.

٤- وأخرج سعيد بن منصور في « السنن». عن عبيد بن عمير، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ ، فقال له : اقرأ، قال : وما اقرأ، فوالله ما أنا بقارئ، فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾، فكان يقول : هو أول ما نزل».

٥ - روى أبو عبيد في « فضائل القرآن» عن مجاهد قال : إن أول ما نزل من القرآن « اقرأ باسم ربك» و« ن والقلم».

٦- وروى عن الزهري أن النبيَّ ﷺ كان بحراء إذ أتى ملك بنمط من ديباج فيه مكتوب ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ إلى : (ما لم يعلم).

فهذه ست روايات كلها صحيحة تدل على أن أول ما نزل هو قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علَّم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

القول الثاني :

١- روى الشيخان عن سلمة بن عبد الرحمن، قال : سألت جابر بن عبد الله: أيُّ القرآن أنزل قبل ؟ قال : يا أيها المدثر، قلت : أو اقرأ باسم ربك ؟ قال: أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ: إني جاورت بحراء فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي فنظرت أمامي وخلفي، وعن يميني وشمالي، ثم نظرت إلى السماء فإذا هو- يعني جبريل- فأخذتني رجفة، فأتيت خديجة، فأمرتهم فدثروني، فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذرْ ﴾.

وهذا الحديث صحيح الرواية ، ودليل قوي لمن يقول أن أول ما نزل : ﴿ يا أيها المدثر﴾.

القول الثالث :

١- أخرج البيهقي في « دلائل النبوة»، والواحدي بطرقهما عن عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة» « إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً».

فقالت : معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث.

فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له، وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة، فانطلقا فقص عليه، فقال: إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يامحمد.. يامحمد..، فأنطلق هارباً في الأفق» : فقال : لا تفعل إذا أتاك فأثبت حتى تسمع مايقول ، ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه: يامحمد: قل ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ﴾ حتى بلغ (ولا الضالين) وهذا حديث مرسل، ورجاله ثقات [1].

القول الرابع :

١ - نقله السيوطي في « الإتقان» حكاية النقيب في مقدمة تفسيره، أن أول مانزل (بسم الله الرحمن الرحيم) .

٢- أخرج الواحدي بإسناده عن عكرمة والحسن قالا: أول ما نزل من القرآن (بسم الله الرحمن)، وأول سورة (اقرأ باسم ربك) .

« أول مانزل جبريل على النبي ﷺ قال : يامحمد استعذ، ثم قل: (بسم الله الرحمن الرحيم).

وهذه أيضاً أدلة ثلاثة للقول الرابع على أن أول مانزل من القران الكريم هو : (بسم الله الرحمن الرحيم).

تحقيق هذه الأقوال:

بعد استعراض نصوص الأقوال الأربعة نجد أن ظاهرها التعارض والتضارب في إثبات أول مانزل من القرآن الكريم.

والحقيقة أنه ليس ثمة تعارض على الإطلاق بين هذه الأقوال جميعاً، وتحقيق ذلك على مايأتي :

١ - أن أول مانزل على الإطلاق هو قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق* خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم ﴾.

---

(١) الإتقان للسيوطي ١ / ٧١ .

أولاً : كثرة الروايات والطرق المروية عن أول ما نزل وأنه على التعيين (اقرأ باسم ربك) مع صحة هذه الروايات كلها .

ثانياً : أن الإستعاذة والبسملة داخلتان في هذه السورة، وفي كل سورة في القرآن الكريم على ما حققه العلماء ما خلا سورة « براءة» فإنها خلت من البسملة. وبذلك يكون القول الرابع مندرج في القول الأول تأصيلاً.

ثالثا : لا تعارض بين حديث عائشة - رضى الله عنها- وبين حديث جابر - رضى الله عنه - لأنه بالتأمل والنظر يجاب بما أجاب به السيوطي في الإتقان عن إزالة هذا التعارض، وألخص هذه الأجوبة فيما يأتى :

(١) أول مانزل هو «اقرأ» والسؤال لجابر -رضى الله عنه - كان عن أول سورة نزلت كاملة. و (اقرأ) نزلت فقط إلى (علم الإنسان مالم يعلم).

(٢) أن أول مانزل من الوحي الكريم هو (اقرأ) ثم فتر الوحي بعد ذلك مدة على ماهو معلوم من كتب السيرة، فكان أول مانزل بعد فتور الوحي هو (يا أيها المدثر قم فأنذر)، فالمراد هنا أولوية مخصوصة لا أولوية مطلقة.

(٣) أن جابراً - رضى الله عنه - أجاب عن سؤال السائل مجتهداً، وليس هو من الرواة عن رسول الله ﷺ، فيقدم عليه رواية عائشة - رضى الله عنها .

(٤) أن الأولوية لآية (يا أيها المدثر)، (أولوية خاصة بالأمر بالإنذار، أي أنها أول آية نزلت في « الإنذار».

(٥) أنها أولوية بسبب متقدم وهو ما وقع من تدثر النبى بسبب الخوف والرعب مما رآه أول مرة من صورة الملك. وأن (اقرأ) نزلت بغير سبب متقدم.

رابعا : أما عن القول « الثالث» بأن أول ما نزل هو (الحمد لله رب العالمين). فقد نقل عن أبي بكر القاضي، في كتاب «الإنتصار» . أن الخبر منقطع [1].

---

(١) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ٦٠ .

كما نقل عن السيوطي أن فيه إرسالاً مع ثقات رجاله أو هو خبر عن نزولها بعد (اقرأ) والمدثر وبهذا يتبين من عرض هذه الروايات أنه لا تعارض بينها، وأنه ثبت أن أصحها هو رواية عائشة- رضى الله عنها- في أن أول ما نزل هو(اقرأ باسم ربك).

مبحث في: ما نزل من القرآن أولا في موضوعات مختلفة

ذكر السيوطي في « الإتقان» . جملة من الآيات الكريمة نزلت أوائل مانزلت ولكنه رتبها على موضوعات أفرد لكل موضوع أوائله، وننقله عنه بترتيب، مع التصرف في النقل للعودة إلى مصادرأخرى على النحو التالي [1]:

موضوع القتال:

١- روى الحاكم في « المستدرك»، عن ابن عباس - رضى الله عنهما-:« أن أول أية نزلت في القتال ﴿ أُذن للذين يُقاتَلُون بأنهم ظلموا﴾ [2].

٢- روى الحاكم في « الإكليل». قال: « إن أول مانزل في القتال: ﴿ إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ [3].

موضوع القتل:

١- أخرج ابن جرير عن الضحاك، أول مانزل في شأن القتل ﴿ ومن قُتل مظلوما﴾ [4].

موضوع الخمر:

١- روى الطيالسي عن ابن عمر، قال : نزل في الخمر ثلاث آيات:

فأول شئ : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر﴾ [5] الأية ، فقيل : حرمت الخمر ، فقالوا: يارسول الله دعنا ننتفع بها- كما قال الله- فسكت عنهم .

---

(١) الإتقان للسيوطي ١/ ٧١ . (٢) الحج : ٣٩ . (٣) التوبة : ١١١ .

(٤) الإسراء : ٣٣١ . (٥) البقرة : ٢١٩ .

٢- ثم نزلت هذه الآية : ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ [١]فقيل : حرمت الخمر، فقالوا: يارسول الله لا نشربها قرب الصلاة، فسكت عنهم.

٣- ثم نزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ﴾ [٢] فقال رسول الله ﷺ : حرمت الخمر .

موضوع الأطعمة:

١- أول آية نزلت فى الأطعمة بمكة آية الأنعام : ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرما﴾ [٣].

٢- ثم آية النحل : ﴿ فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيبا﴾ [٤] إلى أخرها.

٣- وبالمدينة ، آية البقرة ﴿ إنما حرم عليكم الميتة ﴾ [٥] الآية.

٤- ثم آية المائدة ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ الآية ، قاله ابن الحصار [٦] .

موضوع السجدات:

١- روى البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال :

أول سورة أنزلت فيها سجدة « سورة النجم ».

موضوع أول ما أنزل من آيات سورة « براءة »:

١- أخرج الفريابى عن مجاهد قال :

أول ما أنزل الله تعالى من سورة براءة ﴿لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة﴾[٧].

٢- أخرج أيضاً عن أبى الضحى قال :

أول مانزل من « براءة» ﴿ إنفروا خفافاً وثقالاً ﴾ [٨].

٣- أخرج ابن أشتة فى كتاب « المصاحف» عن أبى مالك ، قال :

كان أول براءة ﴿ إنفروا خفافاً وثقالاً﴾.

---

(١) النساء : ٤٣ . (٢) المائدة : ٩٠ . (٣) الأنعام : ١٤٥ . (٤) النحل : ١١٤ .
(٥) البقرة : ١٧٣. (٦) الإتقان ١/ ٧٥ . (٧) التوبة : ٢٥ . (٨) التوبة : ٤١ .

ثم أنزلت « براءة أول السورة، فألفت بها أربعين آية».

٤- وأخرج ابن أشتة في « المصاحف» . أيضاً من طريق داود، عن عامر في قوله تعالى : ﴿ إنفروا خفافاً وثقالاً ﴾ قال :

هي أول آية نزلت في غزوة تبوك، فلما رجع من تبوك نزلت « براءة». إلا ثمان وثلاثين آية من أولها.

موضوع أول مانزل من آيات سورة « آل عمران »:

١- أخرج ابن أشتة في « المصاحف» عن سعيد بن جبير ، قال :

أول ما نزل من آل عمران : ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ [١].

مبحث في : آخر ما نزل من القرآن الكريم

كما اختلف الرواة في أول مانزل اختلفوا كذلك في آخر مانزل.

وهذه الاختلافات كلها سواء في أول أو في آخر مانزل خلافات شكلية مردها إلى :

(١) اختلاف الرواة بحسب اجتهاداتهم الشخصية.

(٢) يحتمل أن كل راو منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه، أو قبل مرضه بقليل، وغيره سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو.

(٣) ويحتمل أيضاً أن تنزل هذه الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول ﷺ مع آيات نزلت معها فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك فيظن أنه آخر ما نزل في الترتيب [٢].

ولذلك نقل الزركشي في « البرهان» عن القاضي أبي بكر في الانتصار قال :

« وهذه الأقوال ليس في شئ منها مارفع إلى النبي ﷺ،ويجوز أن يكون قاله

---

(١) آل عمران : ١٣٨ .

(٢) البرهان للزركشي ١/ ٢١٠ .

قائله بضرب من الاجتهاد، وتغليب الظن، وليس العلم بذلك من فرائض الدين، حتى يلزم ما طعن به الطاعنون من عدم الضبط» [1].

وقد نقل كل من الزركشي في « البرهان» والسيوطي في « الإتقان». بعض ماروي في آخر ما نزل ننقله عنهما بعبارة « السيوطي» لأنه أكثر استقصاءً:

أخر آية في سوة النساء ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ﴾ .

١ - رواه الشيخان عن البراء بن عازب- رضي الله عنه.

* آية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ﴾ [2].

١ - روى البخاري عن ابن عباس- رضي الله عنهما -أنها آخر ما نزل .

٢ - روى البيهقي عن عمر - رضي الله عنه - مثله.

٣- روى ابن مردوية عن أبي سعيد الخدري، قال: خطبنا عمر، فقال: إن من آخر القرآن نزولاً آية الربا [3].

* آية : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾ [4] الآية.

١ - أخرج النسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: آخر شئ نزل من القرآن ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾.

٢ - وأخرج ابن مردوية من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - بلفظ « آخر آية نزلت ».

٣- وهي آية رواية ابن جرير من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس،

٤ - وقال الفريابي في « تفسيره». من طريق ابن صالح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : آخر آية نزلت ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾ الآية.

وكان بين نزولها وبين موت النبي ﷺ واحد وثمانون يوماً.

---

(١) البرهان للزركشي ١/ ٢١٠ .
(٢) البقرة : ٢٧٨ .
(٣) الإتقان للسيوطي ١/ ٧٧.
(٤) البقرة : ٢٨١ .

٥- وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، قال :

آخر ما نزل من القرآن كله ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ الآية.

وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليالٍ، ثم مات ليلة الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول.

٦- وأخرج ابن جرير مثله عن ابن جريج .

٧- وأخرج من طريق عطية عن أبي سعيد قال : كان آخر آية ﴿ واتقوا يوماً ترجعون ﴾ .

قال السيوطي معلقاً على آية الربا، وآية الدين المتقدمتين :

« ولا منافاة عندي بين هذه الروايات في آية الربا ﴿ وأتقوا يوما ﴾ وآية الدين، لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف، ولأنها قصة واحدة، فأخبر كلٌ عن بعض مانزل بأنه آخر، وذلك صحيح، وقول « البراء» آخر مانزل (يستفتونك) أي في شأن الفرائض .

* آية : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ [1].

١- روى الحاكم في « المستدرك» عن أبيّ بن كعب، قال: آخر آية نزلت: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ إلى آخر السورة .

٢-روى عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» وابن مردوية عن أبيٍّ بن كعب أنهم جمعوا القرآن في خلافة أبي بكر،وكان رجال يكتبون، فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة «براءة» ﴿ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾[2]. ظنوا أن هذا آخر ما نزل من القرآن فقال لهم« أبيّ بن كعب« إن رسول الله ﷺ أقرأني بعدها آيتين ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ إلى قوله ﴿ وهو ربّ العرش العظيم﴾ وقال هذا آخر ما نزل من القرآن .

---

(١) التوبة : ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٢) التوبة : ١٢٧ .

قال : فختم بما فتح به : بالله الذى لا إله إلا هو، وهو قوله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ (١).

٣- وأخرج ابن مردوية عن أبيّ أيضاً : آخر القرآن عهداً بالله هاتان الآيتان ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾.

٤- أخرجه ابن الأنبارى بلفظ « أقرب القرآن بالسماء عهداً».

٥- وأخرج أبو الشيخ فى « تفسيره عن ابن عباس - رضى الله عنهما- قال : آخر آية نزلت ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾.

* آية : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾

١ - أخرج مسلم عن ابن عباس- رضى الله عنهما - قال: آخر سورة نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح﴾ .

* سورة المائدة :

١ - أخرج الترمذى ، والحاكم عن عائشة - رضى الله عنها- قالت: آخر سورة نزلت « المائدة» فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه. الحديث .

* سورة «براءة»

١ - روى عثمان - رضى الله عنه - قال : براءة من آخر القرآن نزولاً » (٢) .

قال البيهقى : « يجمع بين هذه الاختلافات- إن صحت - بأن كل واحد أجاب بما عنده.

* آية : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ... ﴾ (٣).

١ - أخرج ابن جرير عن معاوية أنه تلا هذه الآية، وقال: إنها آخر آية نزلت من القرآن .

---

(١) الأنبياء : ٢٥ .
(٢) الإتقان ١/ ٧٩ .
(٣) الكهف : ١١٠ .

قال ابن كثير: هذا أثر مشكل، ولعله أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها، ولا تغير حكمها، بل هي محكمة.

قلت: ومثله ما أخرجه البخاري وغيره عن ابن عباس - رضي الله عنهما.

قال: آية: ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم ﴾ [1] هي آخر ما نزل، وما نسخها شئ.

* آية: ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل ﴾ [2].

قالت أم سلمة - رضي الله عنها - : هي آخر آية نزلت.. إلى آخرها.

قال السيوطي معلقاً: قلت وذلك أنها قالت: يارسول الله أرى الله تعالى يذكر الرجال، ولا يذكر النساء فنزلت.

١- ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ [3].

٢- ونزلت: ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ [4].

٣- ونزلت هذه الآية، فهي آخر الثلاثة نزولاً، أو آخر ما نزل بعد ما كان ينزل في الرجال خاصة [5].

* آية ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ [6].

١- قال أنس - رضي الله عنه - إنها آخر ما نزل.

* آية: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ﴾ [7].

قال السيوطي في «الإتقان» .هذا من المشكل، لأن الله أنزلها بعرفة عام حجة الوداع، وظاهرها إكمال جميع الفرائض والأحكام قبلها، وقد صرح بذلك جماعة منهم السدّي فقال: لم ينزل بعدها حلال ولا حرام، مع أنه وارد في آية الربا، والدين، والكلالة أنها نزلت بعد ذلك، وقد استشكل ذلك ابن جرير، وقال: الأولى

---

(١) النساء: ٩٣. (٢) آل عمران: ١٩٥. (٣) النساء: ٣٢. (٤) الأحزاب: ٣٥.
(٥) الإتقان: ١/٨. (٦) التوبة: ٥. (٧) المائدة: ٣.

أن يتأول على أنه أكمل لهم دينهم بإفرادهم بالبلد الحرام وإجلاء المشركين عنه حتى حجه المسلمون لا يخالطهم المشركون، ثم أيده بما أخرجه من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس - رضي الله عنهما- قال : كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً، فلما نزلت براءة نُفي المشركون عن البيت، وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحدٌ من المشركين، فكان ذلك من تمام النعمة: ﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾ (١).

❊ ❊ ❊

(١) البرهان للزركشي ١/ ٢٠٩ ، الإتقان للسيوطي ١/ ٨١ ، مباحث في علوم القرآن لمنّاع القطان ص٦٩-٧١.



الباب الخامس

علم معرفة المكى والمدنى



الباب الخامس
علم معرفة المكى والمدنى

لا شك أن الأمة الإسلامية مَعْنية بأساس قيام حضارتها وهو « الوحى الإلهى ».بصفة عامة سواء كان قرآنا أم سنة .

ولما كان القرآن الكريم هو « الوحى الجلى ». الذى لا مرية فيه ولا مراء، لذلك أخذ من جهود العلماء أقصى عناية فى الترتيب، والرسم، والقراءة، والتفسير حتى تعددت علومه، وكثرت فنونه، وكلها لكلام الله خادم.

ومن جملة العلوم المهمة فى علوم القرآن الكريم علم معرفة « المكّى والمدنى» ولنشرع الآن فى إلقاء بعض الضوء على هذا العلم، لنتحدث فيه عن« ماهية هذا العلم، وفائدته، وطريق معرفته، وخصائص المكى والمدنى، وما قيل فى حصر ما هو مكي ومدنى، ونبذة عن كلام بعض المستشرقين.

أولاً : ماهية هذا العلم: بالإستقراء، وتتبع كتابات الباحثين قدامى أو محدثين يمكن تعريف هذا العلم بأحد طريقين :

١ - هو : العلم الذى يختص بآيات القرآن الكريم من حيث الترتيب الزمانى والمكانى ، والشخصى، والموضوعى فى آن واحد.

٢- هو : علم يختص بالترتيب الزمانى، والمكانى، والشخصى، والموضوعى لآيات القرآن الكريم.

وقد كتب الباحثون قديماً وحديثاً :

أ- فمن أهم مصادره الأساسية قديماً :

(١) كتب السنّة المشرفة التى لأصحابها سلسلة رواية فيها.

(٢) كتب التفسير بالمأثور.

ب - ومن أهم ما صُنّف فى هذا العلم على سبيل الاستقلال، ومن صنَّف فيه.

(٣) مكّى ، ثم العزّ الدرينى، وإن كنا لا نعرف عن مكان مصنفاتهما شيئاً.

(٤) بدر الدين الزركشى : فى كتابه « البرهان فى علوم القرآن».

(٥) جلال الدين السيوطى فى كتابه« الإتقان فى علوم القرآن».

جـ - ومن الكتب الحديثة :

(٦) محمد عبد العظيم الزرقانى في كتابه « مناهل العرفان فى علوم القرآن».

(٧) صبحى الصالح فى كتابه: «مباحث فى علوم القرآن».

(٨) منّاع القطان فى كتابه « مباحث فى علوم القرآن» وآخرون.

مبحث فى : فائدة معرفة المكى والمدنى

الأول : أنه من أشرف علوم القرآن، وعليه كان اهتمام الصحابة العلماء كعلىّ وابن مسعود ، وابن عباس - رضى الله عنهم .

أخرج البخارى عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : « والله الذى لا إله غيره، ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ؟» الحديث ، ومثله مروى أيضا عن [على] كرم الله وجهه.

الثانى : أن معرفة المكى والمدنى رافد هام من روافد معرفة الناسخ والمنسوخ.

يقول الزرقانى : « تمييز الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم فى موضوع واحد، وكان الحكم فى هاتين الآيتين أو الآيات مخالفاً للحكم فى غيرها، ثم عرف أن بعضها مكى وبعضها مدنى، فإننا نحكم بأن المدنى منها ناسخ للمكى نظراً إلى تأخر المدنى عن المكى»[١].

للباحثين العاملين فى المجالات الآتية :

أ- المفسرون لكتاب الله تعالى : فمن لم يكن على دراية تامة بهذا العلم لا يليق له أن يتصدى للتفسير.

---

(١) مناهل العرفان ١/ ١٩٥ .

ب - الفقهاء المجتهدون .

جـ - الأصوليون المستنبطون للقواعد العامة .

الثالث: التعرف على طريقة عرض الدعوة الإسلامية على الناس في مختلف مراحل نمو المجتمعات .

ففي عرض الإسلام على مجتمع «ما» يبدأ الداعية في التركيز على جانب العقيدة، وتصفية النفوس من الخضوع لغير الله تعالى.. وتكون مادته هي «المرحلة المكية بسورها وآياتها». ثم يبدأ في المرحلة الثانية ببيان الأوامر، والنواهي، والحلال والحرام.. وتكون مادته هي المرحلة المدنية بسورها وآياتها.

وللمستنبط أن يعمل فكره لاستخلاص فوائد أخرى كثيرة.

مبحث في طرق معرفة المكي والمدني

اعلم أن طريق معرفة أيِّ علم من علوم الإسلام إنما يعتمد على واحد من الاثنين الآتيين، أو هما معاً :

أ- إما على السماع: (أي الرواية والنقل) وهذا هو أصل علوم الحديث، وعلوم القرآن التي تفرعت عنهما سائر العلوم .

ب - أو على القياس (أي الاستقراء العقلي) والنظر في الأدلة، والإجتهاد في استخراج كنوز المعرفة.

وعلم المكي والمدني واحد من العلوم التي تعتمد على هاتين الطريقتين.

وقد ذكر العلماء في معرفة المكي والمدني أنه لم يرد فيه شيءٌ عن النبي ﷺ والأجدر لطالب العلم أن ننقل عن الزركشي ما نقله هو عن «أبي بكر الباقلاني» عبارته المشهورة في ذلك من كتاب «الانتصار» فيقول :

«إنما هذا - أي طريق معرفة المكي والمدني - يرجع لحفظ الصحابة وتابعيهم، كما أنه لابُدَّ في العادة من معرفة مُعظمي العالِم والخطيب- وأهل الحرص على

حفظ كلامه، ومعرفة كتبه ومصنفاته من أن يعرفوا ما صنفه أولاً وآخراً .

وحال القرآن فى ذلك أمثل، والحرص عليه أشد غير أنه لم يكن من النبى ﷺ فى ذلك قول ولا ورد عنه أنه قال : اعلموا أن قدر ما نزل بمكة كذا وبالمدنية كذا، وفصّله لهم. ولو كان كذلك منه لظهر وانتشر، وإنما لم يفعله لأنه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب فى بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ ليُعرف الحكم الذى تضمنهما، فقد يعرف ذلك بغير نصّ الرسول بعينه، وقوله هذا هو الأول المكي، وهذا هو الآخر المدنى. وكذا الصحابة والتابعون من بعدهم لّما لم يعتبروا أن من فرائض الدين تفصيل جميع المكي والمدنى مما لا يسوغ الجهل به لم تتوفر الدواعى على إخبارهم به، ومواصلة ذكره على أسماعهم، وأخذهم بمعرفته، وإذا كان كذلك ساغ أن يختلف فى بعض القرآن هل هو مكى أو مدنى، وأن يعملوا فى القول بذلك ضربا من الرأى والاجتهاد. وحينئذ فلم يلزم النقل عنهم ذكر المكي والمدنى، ولم يجب على مَنّ دخل فى الإسلام بعد الهجرة أن يعرف كل آية أنزلت قبل إسلامه: مكية أو مدنية. فيجوز أن يقف فى ذلك، أو يغلب على ظنه أحد الأمرين.

وإذا كان كذلك بطل ما توهموه من وجوب نقل هذا أو شهرته فى الناس ولزوم العلم به لهم، ووجود الارتفاع فيه» انتهى كلام الباقلانى[1].

وإذا أنت - أيها القارىء - فهمت هذه العبارة خلصت إلى نتيجة وهى:

لا يروعنك اختلاف الصحابة فى ترتيب السور كما حدث فى مواقف كلٍّ من أبيّ ابن كعب، وابن مسعود وغيرهما، إذ لم يكن خلافهما يؤدى إلى شئ من الأنزعاج، ويبقى الأمر بعد ذلك على الاجتهاد والإستقراء العقلى، وهو ما جعل كثيراً من الباحثين يضعون القواعد والضوابط النظرية لتحديد المكى من المدنى ، وسنذكرها فيما يلى :

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١/ ١٩١ - ١٩٢ .

أولاً: الفرق بين المكي والمدني

يقول السيوطي في «الإتقان»:

«اعلم أن للناس في المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة:

أشهرها: أن المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها، سواء نزل بمكة أم بالمدينة عام الفتح، أم عام حجة الوداع، أم بسفر من الأسفار.

أخرج عثمان بن سعد الرازي بسنده إلى يحيى بن سلام، قال: ما نزل بمكة، وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي ﷺ المدينة فهو من المكي.

وما نزل على النبي ﷺ في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدني وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أن ما نزل في سفر الهجرة «مكي» اصطلاحاً.

الثاني: أن المكيّ ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة.

وعلى هذا تثبت الواسطة، فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكيّ ولا مدني.

وقد أخرج الطبراني في «الكبير». من طريق الوليد بن مسلم عن عفير بن معدان عن ابن عامر عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ.

«أنزل القرآن في ثلاثة أمكنة: مكة والمدينة، والشام» قال الوليد: (يعني: بيت المقدس، وقال الشيخ عماد الدين بن كثير: بل تفسيره: بتبوك أحسن).

قلت (أي السيوطي): ويدخل في مكة ضواحيها كالمنزل بمنى، وعرفات، والحديبية، وفي المدينة: ضواحيها؛ كالمنزل ببدر، وأحد وسلع.

الثالث: أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة»[1].

ولذلك يحلو لبعض المعاصرين من الباحثين أن يقول: إن العلماء في التفريق بين المكيّ والمدني نظروا إما إلى المخاطبين، وبعضهم نظر إلى المكان وبعضهم نظر إلى الزمان. يعنون بذلك اختلاف مصطلحهم في تحديد المكي من المدني.

---

(١) الإتقان ١/ ٢٣.

ولذلك لاحظوا بدقة بعض الضوابط والخصائص نذكرها فيما يأتى :

ثانيا: ضوابط ومميزات المكىّ والمدنى

استنبط العلماء ضوابط ومميزات اجتهادية لكل من المكىّ والمدنى على النحو التالى :

أ- المكىّ: ضوابطه ومميزاته:

* كل سورة مفتتحة بحروف التهجى (وتسمى حروف التحدى) فهى مكية.

* كل سورة فيها لفظ (كلاًّ) فهى مكية، وهى مذكورة فى خمس عشرة سورة فى النصف الأخير من القرآن ثلاثا وثلاثين مرة .

* كل سورة فيها قصة آدم وإبليس ، فهى مكية.

* كل سورة فيها قصص الأنبياء والقرون الماضية فهى مكية.

* كل سورة فيها اية سجدة فهى مكية.

* كل سورة فيها (يا أيها الناس) دون ذكر (يا أيها الذين آمنوا) فهى مكية

هذا مع أن المكى لوحظ بتمعن النظر فيه أنه :

١- أسلوبه : يعتمد على: إيجاز العبارة، وقصر الفاصلة، وجزالة اللفظ، وقوة الجرس الذى يدق القلوب.

٢- موضوعه : يعالج قضية الإيمان من وحدانية، وبعث، وحساب، وجنة ونار، وإثبات الرسالة، وسوق الأدلة والبراهين، وضرب المثل.

فهذه المرحلة المكية- إذاً - راعت ظروف : ضعف الإسلام، وقلة عدد المسلمين، فتوجهت إلى الصفح والمهادنة بغرض الوصول إلى تثبيت العقيدة، وقطع دابر الشرك فتركز اهتمام هذه المرحلة على إصلاح الجبهة الداخلية.

تنبيه هام:

ينبغى أن يعرف طالب العلم أن هذه الضوابط والمميزات ليست قطعية. وإنما

هى مجـرد اجتهـادات نظرية، وكل واحد منهـا «منقوض» بمثال أو أكثر، مما يدل على أن الحكم فيها ليس على الجميع، وإنما على المجموع. وانظر إلى مايلى :

* ضابط حروف التهجى، وقع منه فى «المدنى» سورتى البقرة وآل عمران.

* ضابط آدم وإبليس فى «البقرة» وهى مدنية لا مكية.

* ضابط « يا أيها الناس» فى « النساء» وهى مدنية لا مكية وَقِسْ على ذلك.

ب- المدني : ضوابطه ومميزاته :

* كل سورة ذكـر فيـها النفـاق والمنافقين فهى مـدنية، لأنه لم يكن بمـكة نفاق أصلاً، وإنما إيمان مطلق، أو كفر بواح.

* كل سورة فيها حَدٌّ، أو أمر بفريضة فهى مدنية.

* كل سورة ذكر فيها « أمرٌ بالجهاد والقتال» فهى مدنية.

* كل سورة فيها جدال مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهى مدنية.

* كل سورة فيها خطاب للمؤمنين غالباً.

هذا أيضاً مع أنَّ المدنى لوحظ بإمعان النظر والتدبر فى قراءته أن له مميزات فى:

أ- **أسلوبه:** يعتمد على طول العبارة، وسلاسة الجـرس، ومخاطبة العقل،كما أنها ذات مقاطع طويلة .

ب- **موضوعه:**

١ - دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بالإسلام، وتبكـيت إخفائهم ما أنزل الله فى كتبهم بشأن دعوة محمد ﷺ وشخصه.

٢- كشف حـقائق النفاق والمنافقين، وتحلـيل ما فى داخل نفوسهم، والتـحذير من خطرهم.

٣- فرض الأحكام الشرعية : وإعلان المبادئ التى يقوم عليها الدين الجديد من عبادات، ومعاملات، وأحوال شخصـية، وعلاقات دولية سلماً أو حرباً، أو عهوداً ومواثيق.

فهذه المرحلة المدنية - إذاً - راعت ظروف الدعوة الإسلامية في ناحيتين هامتين:

الأولى : إعداد الجبهة الداخلية ليشتمل هذا الإعداد كافة الأنظمة التى تقوم عليها المجتمعات المنظّمة، من تشريعات قانونية، وأنظمة اجتماعية أسرية، أو إقتصادية، أو سياسية، أو حربية .

واقتلاع جذور النفاق، واستئصال شأفة المنافقين باعتبارهم فئة معوقة ومثبطة لهمة الدعوة.

الثانية : الإعداد للعمل الخارجي: وغايته تحرير الإنسان في كل مكان من ربقة الكفر والشرك إلى نور الإيمان بالله والعبودية له وحده، وشمل فى ذلك :

أ- الدعوة بالرفق واللين بواسطة البعوث وإرسال الكتب .

ب - تجهيز الجيوش وإعداد الجند، وترتيب الأجناد.

وما سبق أن ذكرناه في « تنبيه الطالب». حول خصائص ومميزات المكي نعود لنذكره به أيضا هنا. وهو أن هذه الضوابط والمميزات إنما هى أمور استقرائية تختلف فى كل مسألة، فالحكم فيها على «المجموع». لا على الجميع .

مبحث في : حصر المكي والمدني وكلها
(مائة وأربع عشرة سورة)

أسهب كل من الزركشي والسيوطي في حصر وتحديد المكي والمدني وتوابعهما، وسأذكر لك ذلك إجمالاً، وأحيلك على هذين الكتابين إن أحببت الإسهاب وزيادة المعلومة[1] .

---

(١) هذا الحصر مرتب حسب ترتيب سور مصحف عثمان، أما عند الزركشي والسيوطي فهي مرتبة طبقاً لروايات الرواة حسب نزولها فلم نشأ أن نذكرها هنا بنفس نظامها لأنه خاص بعلم أول ما نزل وآخر ما نزل وعلى كلٍ نراجعه عندهما: (البرهان - الجزء الأول من ١٩٢-٢٠٥، الإتقان- الجزء الأول من ٢٤-٥٠).

(١) السور المدنية : أصح ما قيل فيها أنها عشرون سورة :

(١) البقرة.	(٨) الأحزاب.	(١٥) الممتحنة.
(٢) آل عمران.	(٩) محمد.	(١٦) الجمعة.
(٣) النساء.	(١٠) الفتح.	(١٧) المنافقون.
(٤) المائدة.	(١١) الحجرات.	(١٨) الطلاق.
(٥) الأنفال.	(١٢) الحديد.	(١٩) التحريم.
(٦) التوبة.	(١٣) المجادلة.	(٢٠) النصر.
(٧) النور.	(١٤) الحشر.	

(٢) السُّور المختلف فيها : آثنتا عشرة سورة هي :

(١) الفاتحة.	(٥) التغابن.	(٩) الزلزلة.
(٢) الرعد.	(٦) المطففين.	(١٠) الإخلاص.
(٣) الرحمن.	(٧) القدر.	(١١) الفلق.
(٤) الصف.	(٨) البينة.	(١٢) النّاس.

(٣) السُّور المكية : ثنتان وثمانون سورة، وهى باقى سور القرآن الكريم على حسب ترتيب مصحف عثمان الذى بين أيدينا.

(٤) الآيات المكية فى السُّور المدنية[1].

١- الأنفال : ٣٣ ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ الآية.

٢- التوبة : ١٢٨ ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ إلى آخر السورة.

٣- الرعد : ٣١ ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كُلِّمَ به الموتى بل لله الأمر جميعاً﴾ إلى هنا.

---

(١) البرهان للزركشى ١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

٤- الحج : أربع آيات ٥٢- ٥٥﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلاَّ إذا تَمنَّى ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ أو يأتيهم عذابُ يومٍ عقيم﴾.

(٥) الآيات المدنية في السُّور المكية :

١- الأنعام : كلها مكية ماعدا ست آيات هي :

* آية ٩١ ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ إلى آخر الآية نزلت في مالك بن الصيف [(١)].

* آية ٩٢-٩٣ ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إليَّ ولم يوح إليه شيء﴾[(٢)]. نزلت في مسيلمة الكذاب، وعبد الله بن أبي سرح أخي عثمان من الرضاعة، الأول فيه (أو قال أوحي إليَّ) والثاني فيه (سأنزل مثل ما أنزل الله).

* الآيات من ١٥١ - ١٥٣ ﴿ قل تعالوا أتل ﴾ إلى آخر السورة.

٢- الأعراف : مكية إلا تسع آيات مدنية ١٦٣-١٧١ ﴿ وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾.

٣- إبراهيم : مكية غير آيتين نزلتا في قتلى بدر ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾. ٢٨، ٢٩.

٤- النحل : مكية ماعدا الآيات من ٤١ إلى آخر السورة فمدنية ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ماظلموا﴾ ٨٨ آية.

٥ - الإسراء : مكية ماعدا الآية ٧٣ ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذين أوحينا إليك ﴾ يعني ثقيفاً فقد نزلت في وفدهم.

---

(١) البرهان للزركشي ١/ ١٩٩ .

(٢) سورة الأنعام : ٩٣ .

٦ - الكهف : مكية : غير الآية ٢٨ فمدنية ﴿ واصبر نفسك مع الذى يدعون ربهم﴾ نزلت فى سلمان الفارسى .

٧- القصص : مكية غير الآية ٥٢ ﴿ الذين آتيناهم الكتاب- يعنى الإنجيل- من قبله هم به يؤمنون﴾- يعنى القرآن، نزلت فى أربعين رجلاً من أهل الكتاب قدموا من الحبشة مع جعفر بن أبى طالب فأسلموا .

٨- الزمر مكية ، غير الآية ٥٣ ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم﴾.

٩- سور الحواميم كلها مكية غير الآية ١٠ فى سورة الأحقاف، فمدنية ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ﴾ نزلت فى عبد الله بن سلام.

١٠- الماعون : مكية إلا أربع آيات ٤-٧ ﴿ فويل للمصلين﴾ إلى آخر السورة فمدنى.

(٦) مانزل بمكة وحكمه مدنى :

١- منها : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾[1] نزلت بعد الهجرة فى مكة يوم فتحها.

٢- ومنها فى المائدة : الآية ٣ ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ إلى قوله تعالى ﴿الخاسرين﴾ فى الآية ٥ نزلت يوم الجمعة، والناس وقوف بعرفات فبركت ناقة النبى ﷺ من هيبة القرآن، وهى مدنية لنزولها بعد الهجرة.

(٧) مانزل بالمدينة وحكمه مكى:

١- الممتحنة كلها، وهى فى حاطب بن أبى بلتعة.

٢- النحل : الآيات ٤١ إلى آخر السورة ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

ماظلموا﴾ كلها مدنية والخطاب لأهل مكة.

٣- سورة الرعد : مدنية، وخطابها موجه إلى أهل مكة.

٤- سورة التوبة من أولـها إلى قوله تعالى ﴿ إنما المشركـون﴾ الخطاب لمشركى مكة، وهى مدنية.

(٨) ما يشبه تنزيل المدنية فى السور المكية:

١- النجم : الآية ٣٢ ﴿ الذين يجـتنبون كـبائر الإثم﴾ يعنى كل ذنب عـاقرته، (الفواحش) يعنى كل ذنب فيه حدٌ (إلاَّ اللَّمم). وهو بين الحدين من الذنوب.

❊ ❊ ❊

الباب السادس

علم معرفة الناسخ والمنسوخ



الباب السادس
علم الناسخ والمنسوخ

علم الناسخ والمنسوخ هو أيضا من العلوم الجليلة التي وضعت لخدمة الفقه والأصول فيما يتعلق بترتيب الأحكام، ورفع تعارض أحكامها.

وقد اهتم بالكلام في هذا العلم والتصنيف فيه جماعة من السلف والخلف على السواء.

وقد ذكر بدر الدين الزركشي في «البرهان» . أسماء طائفة من العلماء ممن أفرد هذا العلم بالتصنيف منهم .

قتادة بن دعامة السدوسي، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو داود السجستاني صاحب السنن، وأبو جعفر النحاس، وابن العربي، وابن الجوزي، وابن الأنباري وغيره (١).

تمهيد: تعريف النسخ:

النسخ لغة : يطلق على معان منها :

١ - الإزالة : تقول : نسخت الشمس الظّل ، أي أزالته . ومنه قوله تعالى ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ (٢).

٢- التبديل : ومنه قوله تعالى ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ﴾ (٣).

٣- التحويل : ومنه « تناسخ المواريث». يعني تحويل الميراث من واحد إلى واحد.

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/ ٢٨.

(٢) الحج : ٥٢.

(٣) النحل : ١٠١.

٤ - النقل : من موضع إلى موضع، ومنه « نسخت الكتاب» إذا نقلت ما فيه حاكياً لخطِّه ولفظه.

نقل الزركشى عن «مكّي» . وهذا الوجه لا يصح أن يكون فى القرآن، وأنكر على «النحاس» إجازته ذلك محتجاً بأن الناسخ فيه لا يأتى بلفظ المنسوخ، وإنما يأتى بلفظ آخر.

وانتصر الإمام أبو عبد الله محمد بن بركات السعدى لما قاله النحاس بشهادة الآية الكريمة ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ (١).

النسخ أصطلاحا : يعرف النسخ فى اصطلاح العلماء بأنه :

« رفع حكم شرعى، بخطاب شرعى، متراخ فى النزول، وصالح للنسخ» ويستفاد من التعريف مايأتى :

١ - أن يكون الحكم المنسوخ شرعياً، فإن لم يكن كذلك كعادات الجاهلية مثلاً فلا نسخ.

٢ - أن يكون الدليل على الناسخ خطاباً شرعيا، فلا يكون قاعدة وضعية مثلاً .

٣ - أن يكون الدليل الناسخ متراخياً فى الزمن عن الخطاب المنسوخ.

٤ - ألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيداً بوقت معين، فإن كان كذلك لم يكن نسخاً، بل تأجيلاً لأجل كقوله تعالى .﴿ فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ﴾ (٢).

---

(١) البرهان للزركسى ٢/ ٢٩ (والسعدى له كتاب مخطوط بدار الكتب المصرية سماه: الإيجاز فى معرفة مافى القرآن من الناسخ والمنسوخ).

(٢) ١٠٩ : البقرة .

٥- أن يكون بين هذين الدليلين تعارض حقيقي لا سبيل إلى الجمع بينهما بأي وجه من الوجوه .

مبحث في : ما يقع فيه النسخ ، وأهميته ، وطرق معرفته

حكى الزركشي قول الجمهور: على أنه لا يقع النسخ إلا في : الأمر، والنهي [١].

وزاد بعضهم: الأخبار، وأطلق ذلك في كل الأخبار، وقيدها الآخرون بالتي يراد بها الأمر والنهي .

فلا يقع في الاعتقادات التي تتعلق بذات الله تعالى، وصفاته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر ، أوالآداب الخلقية، أو أصول العبادات والمعاملات [٢].

أهمية النسخ

يقدم علم النسخ خدمات جليلة لكل من : المفسرين، والفقهاء والأصوليين حتى لا تختلط الأحكام يتبلبل الناس.

ولقد عرف سلفنا الصالح - رضي الله عنهم - أهمية هذا العلم خاصة في مسائل الفتيا والقضاء « فقد نقل عن عليّ - كرم الله وجهه- أنه مرّ على قاضٍ فقال له: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا ، فقال: هلكت وأهلكت» [٣].

طرق معرفة النسخ -

(١) يعرف الناسخ والمنسوخ بالنقل الصريح عن النبي ﷺ، أو عن صحابي يقول آية كذا نسخت آية كذا. هكذا نقله السيوطي عن ابن الحصّار.

(٢) أو بإجماع الأمة .

---

(١) البرهان للزركشي ٢/ ٢٣.

(٢) مباحث في علوم القرآن لمنّاع القطان ص ٢٣٣.

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٣/ ٥٩.

(٣) أو بمعرفة المتقدم والمتأخر.

قال السيوطي :

ولا يعتمد في النسخ قول عوام المفسرين، بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صحيح، ولا معارضة بينة، لأن النسخ يتضمن رفع حكم وإثبات حكم تقرر في عهده ﷺ .

مبحث في : أقسام النسخ

نظر الباحثون في علوم القرآن فوجدوا أن النسخ لا يخلو عن أربع حالات هي:

الأول : نسخ القرآن بالقرآن : وهذا القسم متفق على جوازه ووقوعه عند من يقول بالنسخ ومثاله ، قوله تعالى ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾[١]، منسوخة بآية ﴿ أربعة أشهر وعشراً﴾[٢].

الثاني : نسخ القرآن بالسنة : وهي نوعان :

(أ) نسخ القرآن بالسنة المتواترة، وقد أجازه الجمهور على أنهما وحي صريح.

(ب) نسخ القرآن بالسنة الأحادية، ومنعه الجمهور لأن القرآن متواتر، والآحاد ظني فلا نسخ .

الثالث : نسخ السنة بالقرآن : وأجازه الجمهور وقالوا : كالتوجه إلى بيت

---

(١) ٢٤٠ : البقرة .

(٢) ٢٣٤ : البقرة .

المقدس فقد كان التوجه إلى بيت المقدس ثابتا بالسنّة، ونسخ بقوله تعالى : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾[1].

الرابع : نسخ السنة بالسنة : وهو على أربعة أنواع :

١- نسخ متواترة بمتواترة ، وهذه جائزة.

٢- نسخ آحاد بآحاد ، وهذه جائزة.

٣- نسخ آحاد بمتواترة ، وهذه جائزة.

٤- نسخ متواترة بآحاد ، وفيها الخلاف بين العلماء على نفس الخلاف الذى بينهم فى نسخ القرآن بالسنة الأحادية، والجمهور على عدم جوازهما .

مبحث فى : أوجه النسخ فى القرآن ، والحكمة من وقوعه ، والتعرف على بعض مصطلحاته

هو على ثلاثة أوجه ننقلها عن الزركشى فيما يأتى :

الأول : ما نُسخ تلاوته، وبقى حكمه، فيعمل به إذا تلقته الأمة بالقبول.

ومثاله : ماروى عن عائشة ، وأبىّ بن كعب رضى الله عنهما :

« كان مما يتلى الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة نكالاً من الله».

قال عمر رضى الله عنه :« لولا أن يقول الناس : زاد عمر فى كتاب الله، لكتبتها بيدىّ» رواه البخارى فى صحيحه معلقا[2].

وقد يقال : ما الحكمة فى رفع التلاوة وبقاء الحكم ؟ وهلاً أبقيت التلاوة ليجتمع العمل بحكمها وثواب تلاوتها ؟

---

(١) ١٤٤ : البقرة .

(٢) البرهان للزركشى ٢/ ٣٥.

والجواب : إنما كان ذلك ليظهر به مقدار طاعة هذه الأمة فى المسارعة إلى بذل النفوس بطريق الظن من غير طلب أو إلحاح لطريق مقطوع به، فيسرعون إلى الاستجابة بأيسر شئ كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام، والمنام أدنى طرق الوحى[1].

وبعض أهل العلم ينكر هذا النوع من النسخ، لأن الأخبار فيه أخبار آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد.

وقد يقال : كيف يقع النسخ إلى غير بدل، والله تعالى يقول ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾. وهذا وجه ليس له بدل من مثله ؟

ويجاب عن ذلك : بأن كل ما ثبت الآن في القرآن ولم ينسخ فهو بدل مما قد نسخت تلاوته، وكل مانسخه الله من القرآن مما لا نعلمه الآن، فقد أبدله بما علمناه، وتواتر إلينا لفظه ومعناه [2].

الثانى : نسخ الحكم وبقاء التلاوة :

ومثاله : نسخ حكم آية العدة بالحول مع بقاء تلاوة الناسخ والمنسوخ وهذا النوع هو الذى ألفت فيه الكتب، وذكر المؤلفون فيه الآيات المتعددة، وإن حقق العلماء أنها معدودة، بل ومحصورة فى زهاء عشرين آية.

وقد يقال : ما الحكمة فى رفع الحكم وبقاء التلاوة ؟

والجواب من وجهين : **أحدهما** : أن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به فإنه يتلى كذلك لكونه كلام الله تعالى فيثاب عليه فتركت تلاوته لذلك.

---

(١) البرهان للزركشى ٢/ ٣٥.

(٢) الإتقان للسيوطى ٣/ ٧٧.

وثانيهما : بقاء المنسوخ تذكيراً بالنعمة فى رفع المشقة [1].

الثالث : نسخ التلاوة والحكم معًا .

ومثاله : ما رواه مسلم وغيره من أصحاب السنن عن عائشة رضى الله عنها .

قالت: « كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات يحرمن فنسخن بخمس معلومات » . فتوفى رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن»[2].

فإن قيل : ظاهر « وهن مما يقرأ من القرآن» بقاء التلاوة، وليس كذلك فإنه غير موجود فى مصحف عثمان.

والجواب : أن التلاوة نسخت ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة الرسول ﷺ ، فتوفى وبعض الناس يقرؤها .

وقد أنكر بعض العلماء هذا القسم لأن الأخبار فيه أيضا أخبار آحاد لا يحتج بها على النسخ.

وأجيب عن ذلك : بأن ثبوت النسخ شئ، وثبوت نزول القرآن شئ آخر.

فثبوت النسخ يكفى فيه الدليل الظنى بخبر الآحاد ، أما ثبوت نزول القرآن فهو الذى يشترط فيه الدليل القطعى [3].

مطلب فى الحكمة من وقوع النسخ:

ذكر الشيخ مناع القطان خلاصة الحكمة فى وقوع النسخ فى ما يأتى :

---

(١) الإتقان ٣/ ٦٣ .

(٢) الإتقان للسيوطى ٣/ ٦٢، مباحث فى علوم القرآن للقطان ص ٢٣٨.

(٣) المصدرين السابقين .

(١) مراعاة مصالح العباد.

(٢) تطور التشريع بتطور أحوال المكلفين.

(٣) ابتلاء المكلفين واختبار مدى قدراتهم على الامتثال من عدمه.

(٤) إرادة الخير للأمة والتيسير عليها لأن النسخ إن كان إلى أشق ففيه زيادة ثواب، وإن كان إلى أخف ففيه السهولة واليسر [١].

مطلب في: التفريق بين بعض المصطلحات:

التبس على بعض علماء الأمة - أو غيرهم - بعض المصطلحات التى تشكك فى النسخ فأنكروا وقوعه إما جملة وتفصيلا، أو بالإيهام بهذه المصطلحات.

ولعل أهم هذه المصطلحات التى التبست بالنسخ مصطلحان هما :

(١) البَدَاءُ .　　　　　(٢) التخصيص .

وسنفرق بين كل مصطلح منهما وبين النسخ .

(١) البَدَاء والنّسخ :

معنى البَدَاء : للبداء معنيان :

الأول : الظهور بعد الخفاء، ومنه قوله تعالى : ﴿ وبدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾.

الثاني : نشأة رأى جديد لم يكن موجوداً من قبل، ومنه قوله تعالى فى شأن عزيز مصر مع يوسف عليه السلام ﴿ ثم بدا لهم من بعد ماراأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾.

---

(١) مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ص ٢٤٠.(بتصرف).

والتداخل الذى التبس على بعض الناس هنا، أن النسخ لا يجوز لأنه يؤدى إلى البداء وهو أن يكون ثمة حكم ظهر لله تعالى بعد أن كان خافيا عليه، أو أنه أنشأ حكما جديدًا كان يجهله -تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

والنسخ ليس كما ظن هؤلاء - وإنما هذا زعم اليهود ابتداء- إنما النسخ والمنسوخ أصلاً فى علم الله ابتداء ظاهرة لديه لم يخف عليه منهما شئ، غاية ما هناك بالنسبة للمكلفين أن الله أظهر ما علمه لعباده - وهو عليم به - لا ظهور ذلك له ، لحكمة يعلمها وهو أن الحكم المنسوخ منوط بحكمة أو مصلحة تنتهى فى وقت معلوم، كما علم - جل شأنه- أن الناسخ يجئ فى هذا الوقت المعلوم منوطا بحكمة ومصلحة معينة أخرى لتدرج أحوال المكلفين من الضعف إلى القوة، ومن السقم إلى الصحة .

(٢) النسخ والتخصيص :

معنى التخصيص : هو أن تقصر الحكم على بعض الأفراد دون الجميع، أو هو: قصر العام على بعض أفراده .

والتداخل هنا أن الذين توهموا أن النسخ يؤدى إلى البداء - بزعمهم - اخترعوا القول بالتخصيص للتخلص بدلاً من القول بالنسخ، أى أن ما وقع فى القرآن من الآيات الناسخة إنما هى مخصصة للعموم فى ما ظُنَّ أنه منسوخ.

وهذا خلط تماماً بين النسخ والتخصيص، والتخصيص أبدًا لا يقوم مقام النسخ ولا يَسُدُّ مسده لاعتبارات أهمها :

أولا : أن النسخ يجئ لإبطال حجية المنسوخ إمًا لجميع أفراده فيكون مبطلاً للعام، أو مبطلاً لبعض أفراده حسب الحكم الذى جاء به الناسخ.

أما التخصص فلا يبطل حجية العام (أى المنسوخ) أبدًا، بل تظل حجية العام قائمة والمخصِّص إنما هو بعض الأفراد فقط .

ثانيا : أن النسخ لا يقع إلا بالكتاب أو السنّة، والتخصيص يمكن أن يقع بالعقل والحسّ.

ثالثا : أن النسخ لا يكون إلا في الأوامر والنواهي، بينما التخصيص يكون في الأخبار .

رابعا : أن العام الذى يراد تخصيصه يشمل حكمه جميع الأفراد، وإخراج البعض منهم يكون على سبيل المجاز الذى لابد له من قرينة لتخصيصه بينما النسخ على سبيل الحقيقة القاطعة .

من أجل هذا التوهم والالتباس وقع خلاف العلماء فى موضوع النسخ على أربعة آراء :

أصحاب الرأى الأول : ينكرون تماماً النسخ فى الشرائع، ويعتبرون أنه « بداءة» أى ظهور مسألة عند الله كانت خافية عليه، وهو يؤدى إلى وقوع الجهالة على الله تعالى.

وهذه المسألة رغم أنها لبعض علماء المسلمين لكنها فى الأصل فكرة يهودية شاعت بين علمائهم وأحبارهم بغرض إثبات عدم إمكانية نسخ « التوراة» بعد نزولها. مع أنهم يقرون بأن شريعة موسى ناسخة لما قبلها كتحريم كثير من الحيوان على بنى إسرائيل بعد حلّه، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ كل الطعام كان حلاً لبنى إسرائيل إلا ماحرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ﴾[1].

---

(١) ٩٣ : آل عمران .

أصحاب الرأى الثانى : يثبتون النسخ على أنه وإن كان « بداء» فالبداء عندهم جائز على اللـه تعالى . تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً، وهم الروافض، وقد استدلوا على ذلك بقوله تعالى ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ (١)، على أساس أن الآية تظهر لـله المحو والإثبات، وهذا تحريف للمعنى الموجود فى الآية: إذ المعنى البين من الآية هو : ينسخ الله ما يستصوب نسخه، ويثبت بدله ما يرى فيه المصلحة في إثباته: وهذا المعنى ثابت في حالات كثيرة من القرآن كقوله تعالى : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ (٢). ومحو الكفر والمعاصى بالتوبة.

أصحاب الرأى الثالث : يجيزون النسخ عقلاً، ويمنعون وقوعه شرعاً.

وهذا رأى أبى مسلم الأصفهانى : محمد بن بحر المعتزلى المتوفى سنة ٣٢٢هـ، وهو أول من قال بفكرة التخصيص بدلا من النسخ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (٣).

ووجه استدلاله بها أنه جعلها على معنى أن أحكامه لا تبطل أبدا، مع أن المفهوم من الآية أن القرآن لم يتقدمه ما يبطله من الكتب، ولن يجئ بعده مايبطله.

أصحاب الرأى الرابع : قالوا بجواز النسخ عقلاً، ووقوعه شرعًا.

أما الشرع :

أ- فقوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير﴾ (٤).

ب - ما ورد فى الصحيح عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن عمر -

---

(١) ٣٩ : الرعد .
(٢) ١١٤ : هود .
(٣) ٤٢ : فصلت .
(٤) ١٠٦ : البقرة .

رضي الله عنه قال : « أقرؤنا أبيّ، وأقضانا عليّ ، وإنا لندع من قول أبيّ . وذاك أن أبيًا يقول : لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ، وقد قال الله عز وجل ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾.

وأما العقل :

فلأن أفعال الله تعالى لا تعلل بالأغراض، فله أن يأمر بالشئ في وقت، وينسخه بالنهي عنه في وقت لمصلحة تقتضيها مشيئته تعالى .

وهذا رأي جمهور علماء المسلمين، وهو المعتد به .

مبحث في : قضية النسخ بين الإغراق والغلو

ويتبين من هذه الآراء الأربعة أن قضية النسخ أخذت هذه الأبعاد الأربعة في الفكر الإسلامي، وبعضها دخيل عليه، وهي تتركز كلها ما بين مغال في إنكار النسخ، وما بين مفرط فيه إلى حدّ الإغراق حتى عدوا جميع السور ناسخة ومنسوخة ماعدا ثلاثا وأربعين سورة فقط ليس فيها ناسخ ولا منسوخ [1].

والتحقيق هو وقوع النسخ في بعض الآيات فقط، فالنسخ موجود ولكنه محصور في آيات معينة ننقلها عن السيوطي بإجمالها وهي :

(١) من سورة البقرة :

١ - ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت﴾ [2] منسوخة : قيل بآية الميراث، وقيل بحديث (لا وصية لوارث) [3]، وقيل : بالإجماع .

---

(١) البرهان للزركشي ٢/ ٣٣-٣٤.

(٢) البقرة:١٨٠ .

(٣) النساء: ١١ .

٢- ﴿ وعلي الذين يطيقـونه فدية﴾ [١]، قيل : منسـوخة بقوله : ﴿ فمن شـهد منكم الشهر فليصمه﴾ [٢]، وقـيل : محكمـة ، و(لا) مقـدرة : أي (لا يطيقونه).

٣- ﴿ كما كُتب على الذين من قبلكم ﴾ [٣] منسوخة بقـوله تعالى : ﴿ أُحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ [٤] لأن مقتضاها الموافقة فيما كانوا عليه من تحريم الأكل والوطء بعد النوم. وقيل نسخ لما كان بالسّنة.

٤- ﴿ يسألونك عن الشـهر الحرام﴾ [٥] منسوخة بقـوله : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة﴾ [٦]أخرجه ابن جرير عن عطاء.

٥- ﴿ والذين يتوفـون منكم ويذرون أزواجـاً وصيـة لأزواجـهم مـتاعـاً إلى الحول﴾ [٧] منسـوخـة بقوله : ﴿ والذين يتوفـون منكم ويذرون أزواجـاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ [٨] والوصية في الآية منسوخة بآية الميراث [٩].

٦- ﴿ إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ [١٠] منسوخة بقوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ [١١].

(٢) من سورة آل عمران :

٧- ﴿ يا أيها الذينآمنوا اتقـوا الله حق تقاته﴾ [١٢]قيل منسوخ بقوله:﴿ فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [١٣]، وقيل : محكمة .

---

(١)البقرة :١٨٤. (٢) البقرة:١٨٥. (٣) البقرة:١٨٣ . (٤) البقرة:١٨٧. (٥):البقر: ٢١٧.
(٦) التوبة : ٣٦ ، (٧) البقرة:٢٤٠. (٨) البقرة: ٢٣٤. (٩) النساء:١١. (١٠):البقرة:٢٨٤ .
(١١)البقرة:٢٨٦ . (١٢) آل عمران.:١٠٢. (١٣) التغابن : ٦ .

قال السيوطى : وليس فيها آية يصح فيها دعوى النسخ غير هذه (أى فى آل عمران)

(٣) ومن النساء :

٨- ﴿ والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ [1] منسوخة بقوله : وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾ [2].

٩- ﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه﴾ [3]، قيل : منسوخة ، وقيل : محكمة ولكن الناس تهاونوا فى العمل بها.

١٠- ﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة﴾ [4]. منسوخة بقوله : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد﴾ [5].

(٤) ومن المائدة :

١١- ﴿ ولا الشهر الحرام﴾ [6] منسوخة بإباحة القتال فيه.

١٢- ﴿ فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ [7]، منسوخة بقوله : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ﴾ [8].

١٣- ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم ﴾ [9] ، منسوخة بقوله : ﴿ وأشهدوا ذوى عدل منكم﴾ [10].

---

(١) النساء:٣٣ . (٢) الأنفال:٧٥ . (٣) النساء: ٨ . (٤)النساء: ١٥ .

(٥) النور: ٢ . (٦) المائدة : ٢ . (٧) المائدة:٤٢ . (٨) المائدة :٤٩ .

(٩) المائدة: ١٠٦ . (١٠) الطلاق : ١١ .

(٥) ومن الأنفال :

١٤- ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون﴾ (١). منسوخة بقوله : ﴿ الآن خفف الله عنكم ﴾ (٢).

(٦) ومن التوبة :

١٥- ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً﴾ (٣)، منسوخة بآيات العذر، وهي :-

* ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ (٤).

* وقوله : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ﴾ (٥).

* وقوله : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ (٦).

(٧) ومن النور :

١٦- ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية﴾ (٧)، منسوخة بقوله : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم﴾ (٨).

١٧- ﴿ ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم﴾ (٩). قيل : منسوخة : وقيل محكمة ولكن الناس تهاونوا في العمل بها .

(٨) ومن الأحزاب :

١٨- ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ﴾ (١٠)، منسوخة بقوله : ﴿ إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن ﴾ (١١).

---

(١) الأنفال : ٦٥ . (٢) الأنفال :٦٦ . (٣) التوبة : ٤١ . (٤) النور :٦١ .
(٥) التوبة :٩١ . (٦) التوبة : ١٢٢. (٧) النور:٣ . (٨) النور: ٣٢ : .
(٩) النور:٥٨ . (١٠) الأحزاب:٥٧ . (١١) الأحزاب: ٥٠.

(٩) ومن المجادلة :

١٩- ﴿ إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر﴾ [١]، منسوخة بما بعدها ﴿ ءأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات﴾ [٢].

(١٠) ومن الممتحنة :

٢٠- ﴿ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾ [٣]، قيل : منسوخة بآية السيف، وقيل : بآية الغنيمة، وقيل : محكمة.

(١١) ومن المزمل :

٢١- ﴿ قم الليل إلا قليلاً﴾ [٤]، قيل : منسوخ بآخر السورة، ثم نُسخ الآخر بالصلوات الخمس .

قال السيوطى :

« فهذه إحدى وعشرون آية منسوخة - على خلاف فى بعضها- لا يصح دعوى النسخ فى غيرها ».

والأصح فى آية : الاستئذان، والقسمة : الإحكام، فصارت تسعة عشر، ويضم إليها قوله تعالى : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ [٦]، منسوخة بقوله : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ [٧]. على رأى ابن عباس رضى الله عنهما فتمت عشرون .

---

(١) المجادلة: ١١ . (٢) المجادلة :١٣ . (٣) الممتحنة :١١. (٤) المزمل : ٢ .

(٥) البقرة: ١٥ . (٦) البقرة :١٤٩ .

وقد نظمتها في أبيات فقلت :

قد أكثر الناس في المنسوخ من عدد	∴	وأدخلوا فيه آيا ليس تنحصرُ
وهاك تحرير آي لا مزيد لها	∴	عشرين حررها الحذاق والكبرُ
آي التوجه حيث المرء كان وأنْ	∴	يوصى لأهليه عند الموت محتضرُ
وحرمت الأكل بعد النوم من رفث	∴	وفدية لمطيق الصوم مشتهرُ
وحق تقواه فيما صح من أثر	∴	وفي الحرام قتال للألى كفروا
والاعتداد بحول مع وصيتها	∴	وأن يدان حديث النفس والفكرُ
والحلف والحبس للزاني وترك أولي	∴	كفروا شهادتهم والصبر والنفرُ
ومنع عقد لزان أو لزانية	∴	وما على المصطفى في العقد محتظرُ
ودفع مهر لمن جاءت وآية نجـ	∴	ـواه كذاك قيام الليل مستطرُ
وزيد آية الاستئذان من ملكت	∴	وآية القسمة الفضلى لمن حضروا

مبحث في : النسخ إلى بدل وإلى غير بدل

وقد نظر العلماء في هذه الآيات العشرين فوجدوها لا تخرج عن أن يكون النسخ فيها على وجهين : (٢) أو نسخ بغير بدل .

وهو ثلاثة أنواع :

أ- نسخ ببدل مماثل ومثاله : نسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة.

ب- نسخ ببدل إلى أخف من المنسوخ، ومثاله : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ وقد كان محرما عليهم ذلك إذا صلوا العشاء،

وناموا إلى اليوم التالى .

جـ- نسخ ببدل أثقل من المنسوخ، ومثاله : نسخ الحبس فى البيوت بالجلد ثمانين جلدة، أو الرجم حتى الموت فى حال الإحصان.

(٢) وأما النسخ بغير بدل : فمثاله : نسخ الصدقة بين يدى نجوى رسول الله ﷺ . وأنكر ذلك بعض المعتزلة، والظاهرية .

كما نظر إلى هذه الآيات أيضا بتقسيم آخر فقالوا :

* فرض نسخ فرضا، ولا يجوز العمل بالأول، ومثاله : نسخ الحبس للزوانى بالحد.

* فرض نسخ فرضا ، ويجوز العمل بالأول ، ومثاله : آية المصابرة.

* فرض نسخ ندبا، ثم صار فرضا: ومثاله : القتال كان ندبا ثم صار فرضا،

* ندب نسخ فرضا ، كقيام الليل ، نسخ بالقراءة ﴿ فاقرءوا ما تيسر منه﴾[1].

* * *

(١) الإتقان للسيوطى ٣/ ٦٢.

الباب السابع

علم معرفة القراءات والقراء



الباب السابع
فى معرفة علم القراءات والقراء[1]

وهو : العلم الذى يعرف به أوجه القراءات المختلفة لبعض مفردات النّص القرآنى على حسب ما روى من الأحاديث والآثار .

فهو أيضا من علوم التلقى والرواية ، وليس من العلوم المبنية على النظر والاجتهاد .

فائدته :

الوقوف على أوجه القراءات المختلفة للقرآن لتكون دليلاً على حسب المدلول عليه، أو مرجحًا ، كما نقل الزركشى فى البرهان عن الكواشى.

مبحث فى : أنواع القراءات

١ – متواترة : وهى القراءات السبع.

٢ – آحاد : وهى القراءات الثلاث المتممة للعشر ، وقيل: العشر متواترة .

٣ – شاذة : وهى ما بقى من القراءة.

ومنَ العلماء مَنِ استخلص مِنْ هذه الأنواع أنواعاً أخرى فجعل القراءات ستة هى :

١ – المتواتر : وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم علىَ الكذب عن مثلهم إلى منتهاه – وهذا هو الغالب فى القراءات.

٢ – المشهور :وهو ما صح سنده ولم يبلغ درجة المتواتر ، ووافق العربية والرسم، واشتهر عند القرَّاء فلم يعدوه من الغلط ، ولا من الشذوذ ـ وذكر العلماء فى هذا النوع أنه يُقرأ به .

---

(١) البرهان للزركشى ١/ ٣٣٩ – ٣٤٢، الإتقان للسيوطى ١/ ٢١٠ – ٢٢٩، مباحث فى علوم القرآن ص ١٧٣ – ١٩٦.

٣ - الآحاد : وهو ما صح سنده ، وخالف الرسم، أو العربية ، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور. وهذا لا يُقرأ به ، ومن أمثلته ما رُوِيَ عن أبى بكرة :« أن النبى ص قرأ : « متكئين على رفارف خضر وعباقرى حسان »[1].

وما رُوِيَ عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفَسِكُمْ ﴾[2] . ـ بفتح الفاء .

٤ -الشاذ : وهو ما لم يصح سنده . كقراءة « ملك يوم الدين »[3] بصيغة الماضى . ونصب «يوم» .

٥ - الموضوع : وهو ما لا أصل له .

٦ - المدرج : وهو ما زيد فى القراءات على وجه التفسير ـ كقراءة ابن عباس: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِنْ عَرَفَاتٍ ﴾ فقوله : « فى مواسم الحج» تفسير مدرج فى الآية[4] .

القُرَّاء المعتمدون فى أخذ القراءة عنهم هم :

١ - أبو عمرو بن العلاء شيخ الرواة : وهو زيان بن العلاء بن عمار المازنى البصرى، وقيل اسمه يحيى ، وقيل اسمه كنيته، وتوفى بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة (١٥٤ هـ) .

وراوياه : الدورى، والسوسى، فأما الدورى : فهو أبو عمر حفص بن عمر بن عبد العزيز الدورى النحوى، والدور : موضع ببغداد ، توفى سنة ست وأربعين ومائتين وأما السوسى : فهو أبو شعيب صالح بن زياد بن عبد اللّٰه السوسى، توفى سنة إحدى وستين ومائتين (٢٦١ هـ).

---

(١) أخرجه الحاكم (والآية من سورة الرحمن : ٧٦) بلفظ : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾.

(٢) أخرجه الحاكم (والآية من سورة التوبة : ١٢٨).

(٣) الفاتحة : ٤.

(٤) أخرجه البخارى (والآية من سورة البقرة : ١٩٨) بدون عبارة : «فى مواسم الحج» .

٢ - ابن كثير : هو عبد اللّه بن كثير المكي ، وهو من التابعين ، وتوفى بمكة سنة عشرين ومائة (١٢٠ هـ)

وراوياه: البزى ، وقنبل ، أما البزى : فهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى بزة المؤذن المكي، ويكنى أبا الحسن ،وتوفى بمكة سنة خمسين ومائتين (٢٥٠ هـ).

وأما قنبل : فهو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن خالد بن سعيد المكي المخزومي، ويكنى أبا عمرو، ويلقب قنبلاً ، ويقال : هم أهل البيت بمكة، يعرفون بالقنابلة، وتوفي بمكة سنة إحدى وتسعين ومائتين (٢٩١هـ).

٣ - نافع المدنى : هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم اللّيثى ، أصله من أصفهان ، وتوفى بالمدينة سنة تسع وستين ومائة (١٦٩هـ) .

وراوياه : قالون، وورش ، أما قالون : فهو عيسى بن منيا" بالمد والقصر" المدنى معلم العربية ، ويكنى أبا موسى ، وقالون لقب له أيضا، يروي أن نافعاً لقّبه به لجودة قراءته، لأن " قالون" بلسان الروم " جيد" . وتوفى بالمدينة سنة عشرين ومائتين (٢٢٠ هـ).

وأما ورش : فهو عثمان بن سعيد المصرى ، ويكنى أبا سعيد، وورش لقب له، لقب به فيما يقال لشدة بياضه ، وتوفى بمصر سنة سبع وتسعين ومائة (١٩٧ هـ).

٤ - ابن عامر الشامي : هوعبد الله بن عامر اليحصبى قاضى دمشق فى خلافة الوليد بن عبد الملك ،.ويكنى أبا عمران، وهو من التابعين ، وتوفي بدمشق سنة ثمان عشرة ومائة (١١٨هـ).

وراوياه : هشام ، وابن ذكوان ، فأما هشام : فهو هشام بن عمار بن نصير القاضي الدمشقي، ويكنى أبا الوليد ، وتوفى بها سنة خمس وأربعين ومائتين (٢٤٥ هـ).

وأما ابن ذكوان : فهو عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشي الدمشقي، ويكنى أبا عمرو، ولد سنة ثلاث وسبعين ومائة (١٧٣ هـ) وتوفى بدمشق سنة اثنين وأربعين ومائتين (٢٤٠هـ).

٥ - عاصم الكوفي : هو عاصم بن أبي النجود، ويقال له ابن بهدلة، أبو بكر، وهومن التابعين ، وتوفي بالكوفة سنة ثمان وعشرين ومائة (١٢٨هـ) .

وراوياه : شعبة، وحفص ، فأما شعبة : فهو أبو بكر شعبة بن عباس بن سالم الكوفي. وتوفي بالكوفة سنة ثلاث وتسعين ومائة (١٩٣ هـ).

وأما حفص : فهو حفص بن سليمان بن المغيرة البزاز الكوفي، ويكنى أبا عمرو، وكان ثقة ، قال ابن معين : هو أقرأ من أبي بكر ،وتوفي سنة ثمانين ومائة (١٨٠ هـ) .

٦ - حمزة الكوفي : هو حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات الفرضي التيمي، ويكنى أبا عمارة وتوفي بحلوان في خلافة أبي جعفر المنصور سنة ست وخمسين ومائة (١٥٦ هـ) .

وراوياه : خلف ، وخلاد، فأما خلف : فهو خلف بن هشام البزاز ،ويكنى أبا محمد توفي ببغداد سنة تسع وعشرين ومائتين (٢٢٩ هـ) .

وأما خلاد ، فهو خلاد بن خالد ، ويقال ابن خليد ، الصيرفي الكوفي ، ويكنى أبا عيسى ، وتوفي بها سنة عشرين ومائتين (٢٢٠ هـ).

٧ - الكسائي الكوفي : هو عليّ بن حمزة إمام النحاة الكوفيين ، ويكنى أبا الحسن ، وقيل له « الكسائي » من أجل أنه أحرم في كساء - توفي بـ «رنبوية» قرية من قرى الري حين توجه إلى خراسان مع الرشيد سنة تسع وثمانين ومائة (١٨٩ هـ) .

وراوياه : أبو الحارث ، وحفص الدوري : فأما أبو الحارث فهو اللّيث بن خالد البغدادي، توفي سنة أربعين ومائتين (٢٤٠ هـ).

وأما حفص الدوري : فهو الراوي عن أبي عمرو ، وقد سبق ذكره.

أما الثلاثة تكملة العشرة فهم :

٨ - أبو جعفر المدني : هو يزيد بن القعقاع ، وتوفى بالمدينة سنة ثمان وعشرين ومائة (١٢٨ هـ) - وقيل (١٣٢ هـ) .

وراوياه : ابن وردان ، وابن جماز : فأما ابن وردان : فهو أبو الحارث عيسى ابن وردان المدنى ، وتوفى بالمدينة فى حدود الستين ومائة (١٦٠ هـ).

وأما ابن جماز : فهو أبو الربيع سليمان بن مسلم بن جماز المدنى ، توفى بها بعد السبعين ومائة (١٧٠ هـ).

٩ - يعقوب البصرى : هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمى ، وتوفى بالبصرة سنة خمس ومائتين (٢٠٥ هـ) - وقيل (١٨٥ هـ) .

وراوياه : رويس . وروح ،فأما رويس : فهو أبو عبد الله محمد بن المتوكل اللؤلؤى البصرى ، ورويس لقب له ، وتوفى بالبصرة سنة ثمان وثلاثين ومائتين (٢٣٨ هـ).

وأما روح : فهو أبو الحسن روح بن عبد المؤمن البصرى النحوى ، وتوفى سنة أربع أو خمس وثلاثين ومائتين (٢٣٤ هـ) - أو (٢٣٥ هـ).

١٠ - خلف : هو أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب البزار البغدادي، وتوفى سنة تسع وعشرين ومائتين (٢٢٩ هـ) - وقيل : لم يوقف على تاريخ وفاته .

وراوياه : إسحاق ، وإدريس ، أما إسحاق : فهو أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن عثمان الوراق المروزى ثم البغدادي ، توفى سنة ست وثمانين ومائتين (٢٨٦ هـ).

وأما إدريس : فهو أبو الحسن إدريس بن عبد الكريم البغدادى الحداد، توفى يوم الأضحى سنة اثنتين وتسعين ومائتين (٢٩٢ هـ).

ويزيد بعضهم أربع قراءات على هاتيك العشر ، وهن :

١ - قراءة الحسن البصري ، مولى الأنصار ، أحد كبار التابعين المشهورين بالزهد ، توفى سنة (١١٠) هجرية .

٢ - وقراءة محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن محيصن، توفى سنة ١٢٣ هجرية ، وكان شيخاً لأبي عمرو.

٣ - وقراءة يحيى بن المبارك اليزيدي النحوى ، من بغداد ، أخذ عن أبي عمرو وحمزة ، وكان شيخاً للدوري والسوسي ، توفى سنة ٢٠٢ هجرية.

٤ - وقراءة أبي الفرج محمد بن أحمد الشنبوذى ، توفى سنة ٣٨٨ هجرية.

مطلب في : حكم هذه القراءات وضوابطها :

يعرف إجمالاً أن القراءات أربع عشر قراءة ، سبع متواترة ، وثلاث أحادية ، وأربعة شاذة .

وهذا التقسيم هو ما عليه جمهور علماء الأمة .

وماعدا المتواتر لا تجوز القراءة به في الصلاة ، ولا في غيرها لأنها - والحالة هذه - ليست قرآناً ، لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر ، والقراءة الشاذة ليست متواترة ، كما نص عليه الإمام النووي في « شرح المهذب » ونقله غير واحد من العلماء عنه .

مبحث في : أهم ضوابط القراءة الصحيحة

تتلخص أهم ضوابط القراءة الصحيحة فيما يأتي :

١ - موافقة القراءة للعربية بوجه من الوجوه : سواء أكان أفصح أم فصيحاً، لأن القراءة سُنَّة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها بالإسناد لا بالرأي.

٢ - وأن توافق القراءة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً : لأن الصحابة في كتابة المصاحف العثمانية اجتهدوا في الرسم على حسب ما عرفوا من لغات القراءة ، فكتبوا « الصراط » مثلاً في قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ

المُسْتَقِيمَ﴾. «بالصاد» المبدَّلة بالسين - وعدلوا عن « السين » التى هى الأصل، لتكون قراءة (السين) « السراط » وإن خالفت الرسم من وجه ، فقد أتت على الأصل اللّغوى المعروف ، فيعتدلان ، وتكون قراءة الإشمام محتملة لذلك .

والمراد بالموافقة الاحتمالية ما يكون من نحو هذا ، كقراءة : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فإن لفظة « مالك » كُتِبَت فى جميع المصاحف بحذف الألف فتقرأ «مَلِك» وهى توافق الرسم تحقيقاً ، وتُقرأ «مالك » وهى توافقه احتمالاً ، وهكذا . فى غير ذلك من الأمثلة.

ومثال ما يوافق اختلاف القراءات الرسم تحقيقاً : ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ بالتاء والياء و ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بالياء والنون ، ونحو ذلك ، مما يدل تجرده عن النقط والشكل فى حذفه وإثباته على فضل عظيم للصحابة رضى الله عنهم فى علم الهجاء خاصة ، وفهم ثاقب فى تحقيق كل علم .

ولا يشترط فى القراءة الصحيحة أن تكون موافقة لجميع المصاحف ، ويكفى الموافقة لما ثبت فى بعضها ، وذلك كقراءة ابن عامر : ﴿ وبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ﴾[1] باثبات الباء فيهما ، فإن ذلك ثابت فى المصحف الشامى.

٣ - وأن تكون القراءة مع ذلك صحيحة الإسناد : لأن القراءة سُنَّة مُتَّبعة يعتمد فيها على سلامة النقل وصحة الرواية ، وكثيراً ما ينكر أهل العربية قراءة من القراءات لخروجها عن القياس ، أو لضعفها فى اللُّغة، ولا يحفل أئمة القرّاء بإنكارهم شيئاً .

تلك هى ضوابط القراءة الصحيحة ، فإن اجتمعت الأركان الثلاثة :

١ - موافقة العربية .

٢ - ورسم المصحف

---

(١) آل عمران : ١٨٤ ،بدون الباء في الكلمتين .

٣ - وصحة السند . ففي القراءة الصحيحة ، ومتى اختل ركن منها أو أكثر أطلق عليها أنها ضعيفة ، أو شاذة ، أو باطلة .

مطلب في : أهم الكتب المؤلفة في علم القراءات :

١ - كتاب الحجة لأبي علي الفارس .

٢ - كتاب الكشف عن وجوه القراءات وعللها لمكي .

٣ - كتاب الهداية لأبي العباس أحمد بن عمار المهدوي (ت ٤٣٠ هـ) .

٤ - كتاب النشر في القراءات العشر لابن الجزري .

فوائد :

(١) ينبغي على كل مسلم ومسلمة أن يكثر من قراءة القرآن فهو كلام الله رب العالمين ، الخالق ، العليم بالنفس ، الرحيم بها عند الزلل والمحق، الآخذ بالنواحي إلى طريق الصواب ، والمنجي لها من المهلكات .

ففي قراءته شفاء النفس ، وطمأنينة الفؤاد، وشرح الصدر، والعصمة من المعاصي.

وهو فرض الصلاة، ومستحبات الذكر.

(٢) يحسن قراءة القرآن الكريم بالطريقة الصحيحة، والآداب السليمة التي أورثنا إياها رسول هذه الأمة ص ، وعلمنا إياها الصالحون الأوائل من مشاهير الحفاظ والقراء.

وأهم هذه الآداب ما يلي :

١ - أن يكون على طهارة ،في نفسه ، وثوبه ، ومكانه.

٢ - أن يقرأ في سكينة وخشوع ، ويتهيأ لله تعالى في قلبه وجوارحه لأنه يسمعه.

٣ - أن يتعوذ في ابتداء القراءة.

٤ - أن يقرأ مرتلاً، ويجود كل حرف بحسب مخارجه اللغوية.

٥ - أن يتفهم ويتدبر ما يقرأ ، ويتأثر بمعاني القرآن إن كان وعيداً فيظهر عليه الخوف والحزن، وإن كان وعداً فيظهر عليه الفرح والسرور .

وإن مر بآية فيها سجدة سجد لها، وإن مر بقصة فهم العبرة منها .

٦ - الأفضل أن يجهر بالقراءة ، وأن يقرأ في المصحف .

(٣) لا بأس بتعليم وتحفيظ القرآن الكريم، وأخذ الأجرة عليه.

وإن كان الأفضل تعليم القرآن وتحفيظه حسبة لله تعالى لمن أغناه الله تعالى عن الأجرة .

الخاتمة والنتائج



الخاتمة والنتائج

جاء هذا المدخل لبيان جذور الحضارة الإسلامية المعتمدة على الوحي الإلهي سواء كان قرآنا أو سنة .

وألقى ضوءاً كافيا على أهمية هذه الجذور التي تحاول بعض الأقلام المجنّدة من قبل جهات كثيرة، لا تريد لهذه الحضارة أن تستمر في أداء رسالتها الخالدة، لأنها في نظر هذه الجهات خطر عليها، وعلى مسيرة حضارتها هي .

والمأجور ، والمُؤَجِّر كلاهما في فهم خاطئ، فحضارة الإسلام لم تأت لتهدم حضارات الأمم الأخرى، بل لتعاونها ، وتشد من أزرها إن حاولت أن تستفيد منها، أو تستقل بنفسها وبشئون أبنائها، إن وجدت صِدًّا لمثل هذا النوع من التعاون.

فهي على كل حال حضارة شامخة بعلومها، وفنونها، وآدابها، وتهذيبها يُحْتاج إليها، ولا تحتاج إلى غيرها.

فجاء هذا المدخل ليقول في تواضع إلى كل من لا يفهم - أو لا يحاول أن يفهم- أن جذور الحضارة الإسلامية راسخة وقويّة وعميقة، ولا يهدم شيئاً منها صرخة ناعق لأنها وبكل بساطة تعاليم سماوية محفوظة بالذِّكر وعلوم الذِّكر وقد - قيَّض الله لها من يقوم على خدمتها، وتنميتها، والحفاظ عليها.

وقد كنت أرغب في أن أترك الكتابة في نتائج هذا المدخل إلى فطنة القارئ لولا أن العمل العلمي يحتم عليَّ التذكير به، حتى وإن كانت قائمة بين يديه يراها رأي العين.

وأهم ما خرجت به دراسة هذا المدخل من النتائج مايلى :

(١) شدّ انتباه القارئ إلى حقيقة حاضرة فى الواقع، ولكنها غائبة عن الذهن وهى أن «الدين» غريزة فى النفس البشرية تحتاج إلى الإعتناء بها، وإشباعها بالطرق المشروعة من خلال تعاليم « كل أمة» لها « دين».

وبغير هذا الطريق يكون الإنحراف .. ثم التشدد .. ثم الصراع.

(٢) أن الحضارة الإسلامية هى «الوحى الإلهى» قرآنا وسنة معًا، والسنّة هى بيان القرآن وتفسيره، ومن علومهما وفنونهما قامت حضارة الأمة الإسلامية.

فنحن نقيم العلائق الإجتماعية من زواج، ونسب، وميراث، وطلاق، وعلائق أسرية، وتراحم، وتواد طبقا لتعاليم هذا الوحى .

ونقيم العلاقات الأقتصادية من تعاملات فى البيوع، والشركات، والإجارات، والمزارعات طبقا لمفاهيم علوم هذه الحضارة.

وقس على ذلك سائر العلاقات.

والبحث عن طرق أخرى غير طرق هذه الحضارات يوجب التنازع والتصادم ، ويحدث المفاسد الكبرى فى الأمة .

ولا تستطيع أمة تدين بتعاليم دين معين، أن تطبق تعاليم دين آخر لايدين به أفراد أمتها أيًا كان طبيعة هذا الدين الآخر، أو جبروته .

(٣) علم تفسير القرآن الكريم : علم على غاية من الأهمية، وترجع أهميته إلى بيان المراد عن الله عز وجل سواء أكان ذلك فى الفكر العقائدى، أم فى الأحكام والتشريعات، أم فى الأخلاق العامة، والتراحم والترابط بين الأسرة

الواحدة، وبين الأسر بعضها ببعض، وبين المجتمع ككل، وبين الأمة جميعها في توادها وتعاطفها، وبينها وبين سائر الأمم الإنسانية في تعاونها، وتعايشها، وعلاقاتها الأممية .

ولخطر هذا العلم قام على خدمته مجموعة من العلوم بلغ مجموعها زهاء ثمانين علما أو يزيد، قيض الله لها من يرعاها، ويكشف عن فوائدها لخدمة كتاب الله العزيز ، والمخاطبين به . وصدق الله ـ عز وجل ـ إذ يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) .

د/ عبد الجواد خلف

---

(١) الحجر : ٩.

فهـرس المصادر

* الإتقان في علوم القرآن : للسيوطي ، ط. مصطفى الحلبي ١٩٥١م .

* الأحاديث التساعية : لشيخ الإسلام بدر الدين بن جماعة المتوفى ٧٣٣ هـ ط. دار البيان ـ القاهرة .

* أسباب النزول : للواحدي أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري ـ المتوفى ٤٦٨ هـ ، ط. دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨ .

* أسد الغابة في معرفة الصحابة : لعز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، طبع مطبعة الشعب ـ القاهرة .

* أنوار البيان في علوم القرآن : لزكي محمد أبو سريع ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢ ـ طبع دار الطباعة المحمدية .

* البرهان في علوم القرآن : للزركشي محمد بن عبد الله المتوفى ٧٩٤ هـ .

* تاج العروس : للسيد محمد مرتضى ، ط. دار الجبل ـ الكويت ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م

* تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي ، طبع دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن الهند ١٣٨٤هـ .

* تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي : لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى ٩١١ هـ ، طبع دار الكتب الحديثة ـ القاهرة .

* التفسير والمفسرون : لمحمد حسين الذهبي ، ط. دار الكتب الحديثة ـ القاهرة .

* تهذيب التهذيب : لأحمد بن حجر العسقلاني، ط. أولى ـ الهند .

* تهذيب اللغة : لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ، طبع المؤسسة المصرية العامة للتأليف ـ القاهرة .

* جامع البيان عن تأويل آى القرآن : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ـ الطبعة الثالثة ـ طبع مطبعة ومكتبة البابى الحلبى ـ القاهرة .
* دلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث : (امتياز أحمد) الطبعة الأولى ـ ط. دار الوفاء ـ المنصورة .
* الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب : لابن فرحون .
* سنن الترمذى : لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى ، توفى ٢٥٥هـ ط. دار الكتب العلمية. بيروت .
* السيرة النبوية : لأبى محمد عبد الملك بن هشام ـ ط. دار الهداية .
* شرح السنة : للحسين بن مسعود البغوى ـ المكتب الإسلامى بيروت ١٩٨٣م .
* صحيح البخارى بشرح السندى : للإمام محمد بن إسماعيل البخارى ـ ط. عيسى الحلبى .
* صحيح البخارى بشرح فتح البارى : للحافظ أبى الفضل شهاب الدين أحمد بن على بن محمد ـ ط. دار إحياء التراث العربى ـ بيروت .
* صحيح مسلم : بشرح النووى للإمام مسلم بن الحجاج القشيرى ـ ط. دار الفكر.
* طبقات الشافعية الكبرى للإمام السيوطى ، ط. أولى. عيسى الحلبى .
* طبقات المفسرين : لجلال الدين السيوطى . طبعة ليدن ١٨٣٩م .
* علوم الحديث : لابن الصلاح أبو عمر بن الصلاح ـ طبع الهند ١٣٥٧هـ .
* القاموس المحيط : لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى ـ الطبعة الثانية (١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م) طبع ـ مطبعة الحلبى ـ القاهرة .
* فتاوى ابن تيميه : لأحمد بن تيميه الحرانى ـ مكتبة كردستان العلمية ١٣٢٩هـ.

* لسان الميزان : لشهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى ـ الطبعة الأولى ـ طبع. دائرة المعارف النظامية حيدر آباد الدكن الهند ١٣٢٩ هـ .
* مباحث فى علوم القرآن : لمناع القطان .
* مبادىء التفسير : لمحمد الخضرى الدمياطى ـ طبع مطبعة النيل ١٣٢١ هـ .
* مجمع البيان فى تفسير القرآن : للشيخ أبو الفضل بن حسين الطبرسى. منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت .
* المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن الكريم : لجولد زيهر. تعريب على حسن عبد القادر وآخرين .
* المستدرك على الصحيحين : لأبى عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ النيسابورى ـ ط. دار الكتاب العربى بيروت .
* مسند الإمام أحمد : طبع المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٣ هـ .
* مقدمة فى أصول التفسير : لابن تيميه ـ طبع مطبعة الترقى ـ بدمشق .
* معرفة علوم الحديث : للحاكم النيسابورى ـ دار الكتب المصرية ١٩٣٧هـ .
* مناهل العرفان فى علوم القرآن : للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى ـ طبع عيسى البابى الحلبى ـ القاهرة .
* مورد الظمآن إلى علوم القرآن ـ طبع الهند .
* هدى السارى مقدمة فتح البارى : لابن حجر العسقلانى ـ طبع إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٧ هـ .

* * *



فهـــرس الموضوعات

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الباب الأول

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة